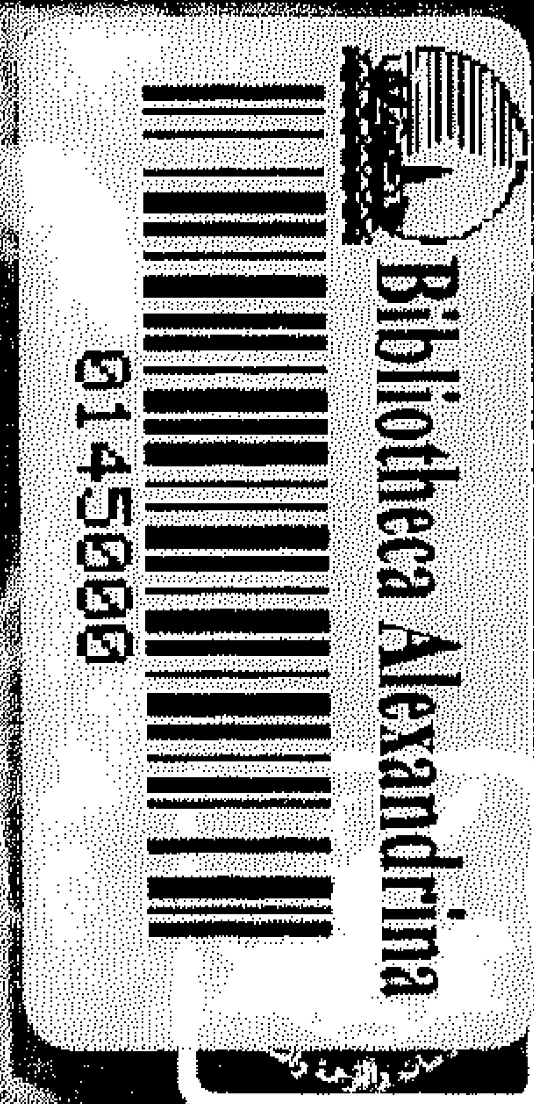
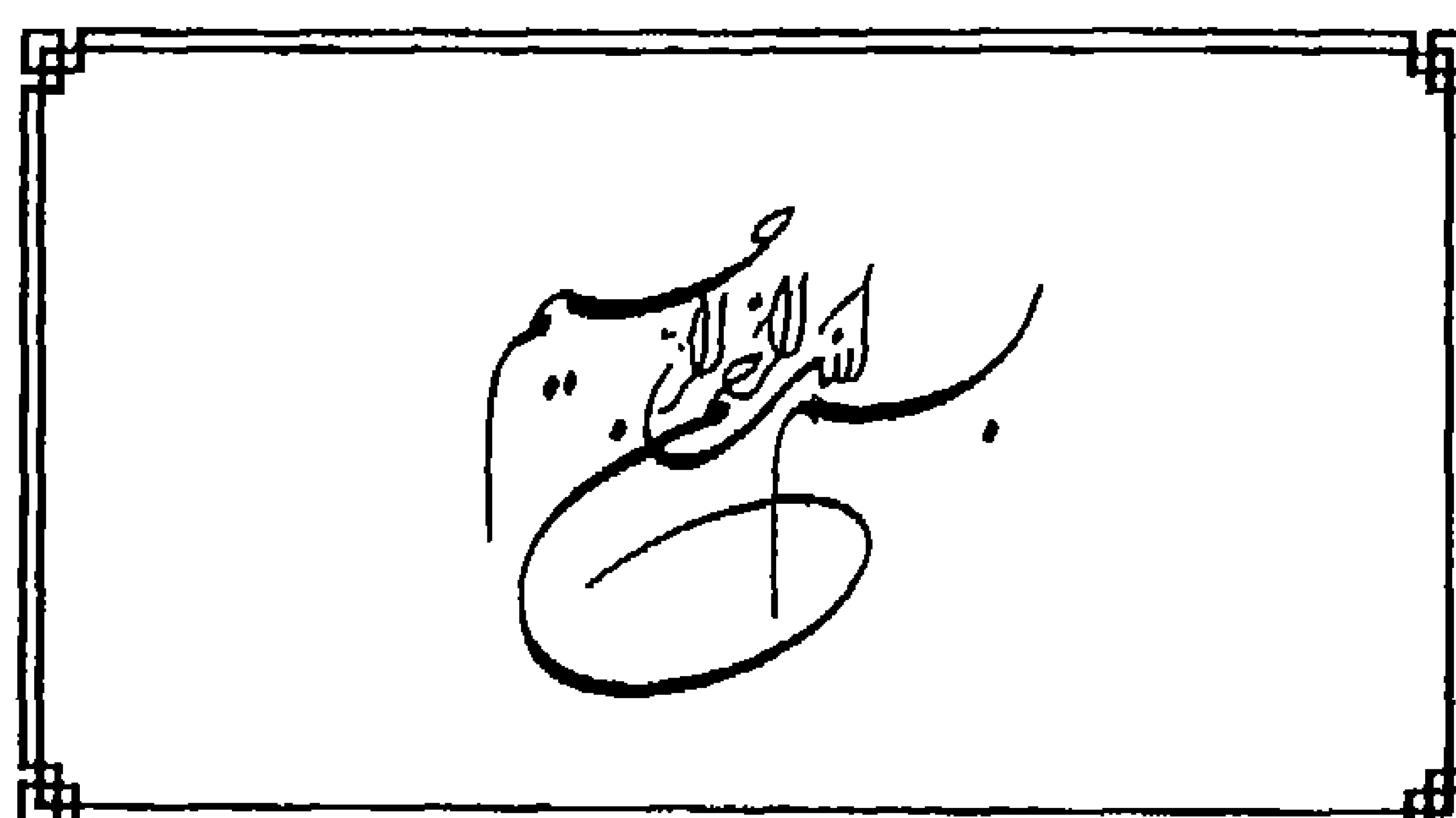
محمد فايز كم نقش

العلم والدين

تمرد في السماء




بسم الله الرحمن الرحيم



دار طـــــلاس

للدراسات والترجمة والنشر

دمشق ـ اوتستراد المزة. ص.ب: ١٦٠٣٥

هاتـف : ٦٦١٨٠١٣ ـ ٦٦١٨٩٦١

تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ ـ برقياً : طلاســدار

ريـــع الـــدار

لمدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

تمرّد في السّماء

الطبعة الأولى - ٢٠٠٠ م

مُحَمَّد فَايِز كُم نَقْش

العلم والدين

تمرّد في السّماء



الفهــــرس



المقدمة

عزيزي القارئ

إذا بلغك نبأ تمرد أو عصيان في مكان ما من العالم وكنت من المهتمين بمتابعة الأحداث العالمية فإنك ستبدأ بجمع المعلومات عن أسباب ذلك التمرد ودوافعه الفكرية والاجتماعية مركّزاً على طبيعة العناصر المشتركة فيه والأهداف التي تتطلع إلى تحقيقها ونسبة النجاح والفشل المتوقعة تبعاً للإجراءات المتخذة لقمع تلك المحاولة والقضاء على مثيريها . ولن تكتفي بهذا القدر من البحث بل ستتعداه إلى دراسة الآثار التي قد يحدثها ذلك التمرد في البلدان المجاورة في حال نجاح القائمين به في تحقيق أهدافهم استناداً إلى طبيعة مكان الحادث وطبيعة البنية المحيطة . به والمصالح التي ستحققها الأطراف المؤيدة للمتمردين .

ومثل هذا الحدث يصبح مادة الحديث في المجالس العامة والخاصة يدلي المشتركون فيه بآرائهم التي تختلف باختلاف المستوى الفكري والثقافي للمتحدثين ولكل جانب رأيه وتقديره .

لكن الغريب أننا علمنا بنبأ أول تمرد وقع منذ بدء الخليقة خلّف آثاراً مدمرة مؤثرة في حياتنا فلم نعن بدراسة أسبابه ودوافعه واعتبرناه قضية مسلّمة لا تستوقف الانتباه ولا تثير الفضول أو التطلع رغم ما تحدثه في طبيعة وجودنا من تهديد لمصائرنا وما تنزله فينا من عواقب وخطوب .

ذلك هو تمرد إبليس على أمر الخالق الأعظم الذي نجم عنه ما نعانيه في حياتنا من آلام وصروف .

كان مسرح ذلك التمرد الوجود ، وأعني الأرض التي نعيش عليها . أما عناصره فكانت الخالق سبحانه وملائكته وآدم الذي كان علّة تسلسل وجودنا إضافة إلى إبليس الذي لم يكن لعيناً حينذاك .

ولما كان العلم المادي بأقانيمه الثلاثة : المشاهدة والتجربة والاستنتاج لا يعترف بما يؤكده الفقهاء في كل الأديان وما يفرضونه حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل والنقاش ، فإن العلماء الماديين يرجعون خلق الكون إلى ألوف الملايين من السنين تبعاً لأربع نظريات تتفق في نقطة البدء وتختلف في بعض التفاصيل بينما يعتمد الفقهاء على ما ورد في كتابنا الكريم الذي لا يجوز بحق مجرد الشك في ما جاء فيه . والآية التاسعة (من سورة « فصلت ») ، الواحدة والستون حسب تسلسل النزول ، تقول : ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين﴾ .

فتعال معي نبحث في هذا اللغز المحير باستعراض ما قيل فيه والمقارنة بين آراء الذين سبقونا إلى تحليله وما استخلصوه من نتائج عسى أن نصل معاً إلى الحقيقة التي استعصى على الكثيرين فهمها. إنه حدث عجيب غريب يتناقض في ظاهره مع إيماننا المطلق بعظمة الخالق وحكمته وعدالته واستحالة أن يعصي مخلوق أمره أياً كانت قدرته ومنزلته. فمن هو إبليس هذا الذي رفض الامتثال لما أمر به الخالق العظيم بالسجود لآدم فامتثل الملائكة أجمعون إلا هو وما كان من الكافرين.

تعال معي نحلل هذا اللغز المحير بدءاً من المكان الذي وقع فيه فالأطراف الضالعة في دائرة وقوعه لنصل إلى النتائج التي يقرها العلم والدين. ولك أن تتقبل ما نصل إليه أو أن تعتبره لغواً لا يستحق التقدير.

م. فايز كُم نقش

الأرض

سنبدأ بالأرض التي أقام عليها آدم وجودنا. لقد ورد ذكر خلق السماوات والأرض في كتابنا الكريم في آيات كثيرة تحدد الوقت الذي استغرقه خلقها. وأول آية جاءت في سورة «الأعراف»، ونصها:

﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ ٥٤.

وما يقوله الخالق العظيم عن الليل والنهار والكواكب سبق مدهش لما تعلمناه بعد قرون عن حركة الشمس والأرض والكواكب التي تملأ فضاء الكون وعن النظم المهيمنة على حركتها.

والآية الثانية جاءت في سورة الفرقان تقول:

﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، الرحمن، فاسأل به خبيراً﴾ ٥٩.

والآيتان الثالثة والرابعة جاءتا في سورتين متتاليتين «يونس» و «هود» الأولى تقول:

﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾ ٣.

والثانية:

﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ ٧.

وهنا أدعوك أن تقرّ في ذهنك عبارة «وكان عرشه على الماء» لأنك سترى في هذا السياق مدى الإعجاز فيما قاله الخالق العظيم.

والآية الخامسة هي التاسعة في سورة «فصلت» ونصها:

﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين﴾.

والآية السادسة جاءت الرابعة في سورة «السجدة» ونصها:
﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾.

وآخر الآيات التي جاء فيها ذكر خلق الأرض هي الرابعة من سورة «الحديد» ونصها:
﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾.
وأدعوك كذلك إلى أن تعمل الفكر ملياً وأن تتعمق في المعنى الذي تظهره هذه الآية الكريمة لأننا سنعود إلى مفهومها علمياً في هذا السياق.

وقد تجد أن تسلسل الآيات التي أوردتها لا يتفق مع تسلسل سورها كما جاءت في كتابنا الكريم. والسبب أنني اعتمدت في نقلها على ترتيب نزولها الذي يختلف عن الطريقة التي نظمت بها بحيث يسهل قراءتها على المبتدئين. فسورة «الأعراف» هي التاسعة والثلاثون حسب ترتيب النزول و «الفرقان» الثانية والأربعون و «يونس» الواحدة والخمسون و «هود» الثانية والخمسون و «فصلت» الواحدة والستون و «السجدة» الخامسة والسبعون و «الحديد» الرابعة والتسعون.

هذه هي الآيات التي جاء فيها ذكر خلق الأرض والسماء والتي يعتمدُ الكثيرون على نصوصها الحرفية بعيداً عن المفهوم العلمي. بيد أنها في مجموعها لا تشير إلى المادة التي خلق الله الكون منها. لكن العلماء لم يقفوا صاغرين أمام هذه المعضلة، بل جاؤوا بأربع نظريات حول خلق الأرض تتفق في نقطة البدء وتختلف في التفاصيل البعدية.

النظرية الأولى هي نظرية الانفجار الكوني التي يزعم أصحابها أن الكون في بدايته كان كتلة هائلة من مادة كثيفة إلى أبعد حدود الكثافة وأن الضغط ازداد فيها إلى أبعد حدود التصور فأحدث انفجاراً كونياً هائلاً نتيجة لذلك الضغط الممتنع عن الوصف، فتناثرت شظايا تلك الكتلة الهائلة وراحت تتباعد وتتشكل بلايين المجرات التي تحوي بلايين المجموعات الشمسية. أما أرضنا التي نعيش عليها فإنها قطعة من شمسنا انفصلت عنها وظلت تدور حول نفسها وهي ملتهبة وتتباعد عنها حتى استقرت في مكانها الحالي، وأن المادة التي كانت تشتعل فيها استغرق احتراقها بليوني سنة من سني أرضنا حتى خمدت واستقرت في مجالها

الجوي. أما الحياة على ظهر هذه الكتلة المنطفئة فقد ظهرت في البليون الثالث من السنين وظلت تتطور حتى ظهرت الفقاريات في البليون السادس والأخير من تاريخ انفصالها عن الشمس.

والنظرية الثانية لا تختلف عن الأولى سواء في الانفجار الأول أو في بلايين السنين التي انقضت على انفصال أرضنا عن شمسنا حتى استقرت في مدارها الحالي وظهرت عليها الفقاريات بعد ذلك التطور الطويل. لكن أصحابها يضيفون إليها تأكيدهم بأن الكون في خلق وتجدد مستمرين لأن المادة المستهلكة فيه تتحول إلى طاقة تتحول بدورها إلى مادة وهكذا دواليك، وهو الأمر الذي يفسر استقرار الكون وثباته. واستناداً إلى رأيهم هذا أطلقوا على نظريتهم اسم «نظرية الكون المستقر».

والنظرية الثالثة تتفق مع النظريتين السابقتين من حيث الانفجار الأول وتباعد الشظايا، لكنها تضيف أن هذه البلايين من المجرات لن تظل سابحة في الفضاء إلى الأبد بل ستعود إلى التقارب فالالتصاق فتزايد الكثافة والضغط فالانفجار وتناثر الشظايا وهكذا دواليك. فالمادة في رأيهم لا تموت ولا تفنى بل تتحول وفق دورة محددة، لذا أطلقوا على نظريتهم هذه اسم «نظرية الكون المتذبذب».

وأحدث نظرية حول الوجود واسمها «نظرية الشتات»، تختلف عن السابقات في كل شيء لأنها لا تقر بوجود الكتلة المادية الهائلة التي انفجرت بالضغط الهائل الذي تم فيها فتناثرت وشكلت ما نراه في آفاق الكون، بل ترى أن البداية كانت سحابة هائلة من جسيمات موجبة وجسيمات نقيضة «سالبة» مشحونة بطاقة كهربائية تناثرت متباعدة عن النقطة التي كانت متراكمة فيها لأنها لو تقاربت وتلامست لأفنى بعضها بعضاً ولما كان للكون وجود.

ولا ريب أننا سنقف حائرين أمام الأرقام المذهلة للسنين التي مرت قبل وجود الفقاريات والإنسان إذا ما قورنت بالأيام الستة التي ورد ذكرها في كتابنا الكريم. لكن الحل والترابط لن يكونا بعيدين في سياق هذا البحث.

ولسنا في مجال التعريف بأصحاب هذه النظريات ومناقشة أفكارهم وتحليلها والحكم على مدى صحتها. نكتفي بالقول إن ثلاث مجموعات من العلماء المفكرين اتفقوا على مبدأ الكتلة التي انفجرت بتأثير الضغط بينما انفردت مجموعة واحدة وركّزت على مبدأ الجسيمات السالبة والموجبة ونفت فكرة الانفجار، ولكن ما من مجموعة منها تطرقت إلى البحث في

الوضع المستقبلي للوجود ولا في مصدر تلك الكتلة التي كانت السبب في الوجود. والسبب البيّن هو أنهم جميعاً «بعلمهم» ما استطاعوا تقديم أي تفسير مقبول حول مصدرها وحجتهم في ذلك أن العلم يقتصر في أبحاثه على ما هو كائن ومدرك وملموس. أما الأمور الأخرى، فإنها مجرد غيبيات ميتافيزيقية تعتمد على القناعة والمنطق الذي انفرد به الفلاسفة.

هذا بإيجاز شديد مجمل رأي العلماء في الوجود. صحيح أنهم تجاهلوا البحث في مصدر الكتلة والجسيمات لأنها لا تقع في دائرة الحواس، لكنهم وفروا للمفكرين مجالاً جاداً للربط بين أقوالهم ومعطيات العقائد الدينية. إنهم يؤكدون تجسد الطاقة على شكل مادة أي أنهم يوافقون على أن كل مادة في هذا الكون بما فيها الإنسان والحيوان والنبات هي طاقة مجسدة تتفق في طبيعة تكوينها وتختلف في أشكالها ومظاهرها.

ثم إنهم في أحدث نظرية يؤكدون وجود جسيمات موجبة وأخرى نقيضة، أي أن لكل نيوترون وإلكترون نيوتروناً وإلكتروناً نقيضاً أطلقوا عليه اسماً خاصاً لتعريفه وبذلك تكون كل حركة نقوم بها في عالم اليوم، وهي مكونة من جسيمات موجبة، تشكل في مكان ما حركة عكسية بجسيماتها النقيضة، أي أن البداية تبدأ من النهاية بحركة بطيئة كما لو كنا نعرض شريطاً سينمائياً من نهايته إلى بدايته ببطء — سلوموشن — وهذا يعني أن ما ينتهي هنا يبدأ هناك في ذلك المكان الذي لا يمكن تحديده الأمر الذي يؤكد أزلية الكون، فالإنسان الذي ينهي حياته هنا بوجوده الإيجابي يبدأ هناك من جديد ابتداء من البويضة في رحم الأم فالحوين المنوي الملقح فالتكون والولادة والنمو. وبتعبير آخر يمكن القول إن الجسيمات النقيضة هي الصورة العكسية للإنسان التي تؤكد أزلية وجوده وإن كان يجهل المكان الذي سيعود إلى الوجود فيه. وهذه النتيجة، أي تجسد المادة وجسيماتها النقيضة في مكان مجهول، أمر على جانب كبير من الأهمية لأنه يوضح بعداً كبيراً من الغموض الذي يورده المفهوم الديني. فالفقهاء في كل الأديان يعتمدون على ما ورد من ذكر للوجود في الكتب المقدسة ويفسرون الكلمات بمفهومها اللغوي دون أن يعملوا على الربط بينها وبين الفكر العلمي. بذلك يكون الوجود مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمشيئة الخالق العظيم دون أي بيان منفصل عنه. وهذا أمر لا ريب فيه ولا شك، لكن العلماء يرون أن الإنسان قادر على معرفة حقائق وجوده وتكوينه بقدرة تعود إلى ما أودعه الواجد فيه من مكونات وهذا أمر محسوس وملموس. ولو شاء الله سبحانه أن يشرح لنا في كتابه الكريم دقائق الوجود وتكوينه وتطوره لفاق حجم قرآننا على أحجام كل الموسوعات العلمية مجتمعة لأنه لم يدع شيئاً إلا وأشار إليه فيه ودعا الإنسان إلى إعمال فكره ليصل إلى المعرفة. والفكر الذي يملكه الإنسان هبة من الخالق تفضل به عليه

ليصل بفضله إلى ما كان مغلقاً على أسلافنا تبعاً للمستوى الفكري والثقافي الذي يزداد تطوراً في كل عصر .

فالعرف الديني يحد خلق السماوات والأرض في ستة أيام كما جاء بشكل واضح في الآيات التي أوردتها في هذا السياق . وإذا توقفنا عند هذا النص بمفهومه الحرفي لا نجد سبيلاً إلى ربطه بالمفهوم العلمي إلا إذا اعتبرنا أن خلق السماوات والأرض التي نعيش عليها تم بعد أن احترقت المواد التي كانت مشتعلة في الجزء الذي انفصل عن الشمس وبعد أن استقرت الأرض والشمس في مداريهما فبات التوقيت الذي نعمل به اليوم معروفاً ومحدوداً، وبذلك يكون الخلق قد استغرق مائة وأربعة وأربعين ساعة من ساعاتنا على الأرض، أما إذا كان الخلق قد تم بعد الانفجار الأول فهذا يعني أن اليوم حينذاك كان يقدر ببليون سنة من سني اليوم لأنه لم يكن مرتبطاً بدورة الأرض حول الشمس وهي التي لم تكن قد استقرت بعد .

وما أقوله هنا لا يتنافى مطلقاً مع قوله تعالى في كتابنا الكريم :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ .

ولفظ كلمة « كن » لا يستغرق ثانية من توقيتنا وهذا يدلل بصراحة على أنه سبحانه يصدر الأمر فيتحقق الشيء. لكن تطوره إلى المرحلة التي يجب أن يكون عليها يرتبط حكماً بمكونات ذلك الشيء والتفاعلات التي أودعها فيه من قبل أن يكون . والآية الكريمة من سورة « فصلت » تؤيد ذلك ونصها :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ ١١ .

فالدخان كما نعلم ينجم عن انطفاء لهب النار المشتعلة . والآية التي جاءت بعدها في سورة « هود » تقول :

﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ٧ .

والماء كما نعلم يتكون عادة من « الدخان » إذا تعرض لدرجة حرارة منخفضة . وهذا التقدير لا يتعارض مع النظرية العلمية التي تقول بانفصال الأرض عن الشمس وهي تلتهب . فاللهب يحدث دخاناً والدخان المتكاثف يتحول إلى سائل بفعل البرودة . وهذا يعطينا فكرة مقبولة عن كثافة الدخان « الذي تحول إلى ماء غمر أكثر من ثلثي مساحة الأرض » و « اليومين » كما جاء في سورة « فصلت » في الآية التاسعة ونصها :

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴾ .

تحدد خلق الأرض وحدها دون السماء. وما جاء في النظرية عن بقاء القطعة التي انفصلت عن الشمس وهي ملتهبة بليوني سنة قبل أن تخمد النار فيها لا يختلف عما قاله الخالق العظيم إلا من حيث التوقيت وتحديد اليوم. و «الماء» و «الدخان» في هاتين الآيتين يدعواننا إلى الربط بين انفصال الأرض عن الشمس واستقرارها في مدارها بصرف النظر عن مفهوم التوقيت في أرضنا الذي أقيم بعد أن باتت الشمس والأرض خاضعتين للنظام الكوني الجديد. هذا مجرد رأي أطرحه. ومن يدري، فقد يتوصل فكر الإنسان إلى حل هذا اللغز المحير.

هذا ما كان من نتاج العلماء. لكن المفكرين انقسموا في هذا المضمار إلى شكوكيين وماديين وميتافيزيقيين. الشكوكيون منهم يتساءلون عما إذا كان الإنسان قادراً على معرفة الحقائق الحقة بأجهزة ليست من صنعه لا يعرف عن تكوينها شيئاً ولا يَدَ له في اختيارها. فالحواس كلها: الإبصار والسمع واللمس والذوق والحس والشم ثم الإدراك والعقل، كلها أجهزة أودعت فيه دون أن يعرف شيئاً عن عملها. أجهزة تعمل وفق نظام يحكمها تعطي نتائج محدودة تبعاً لتكوينها. فنحن نقول إن هذا لون أسود لأن حاسة البصر أعطتنا هذه الصورة. ولكن ماذا يؤكد أنها صورة حقيقية؟ هل لونها أسود حقاً؟

وآخرون منهم يتساءلون عما إذا كان الإنسان قادراً على معرفة الوجود كما هو في حقيقة وجوده أم أنه يضفي عليه صوراً ذهنية ليست من طبيعته، وهل تجري هذه المعرفة بالعقل أم بالحواس أم بكليهما معاً؟

ومجموعة ثالثة ترى أن المعرفة تتم بالإلهام والحدس. لكنهم جميعاً يجدون أنفسهم أمام حاجز منيع يعترض تفكيرهم ألا وهو واجد الوجود. فكيف يتحدثون عن موجود يحاولون فهمه والتعرف على دقائقه دون أن يعرفوا شيئاً عن طبيعة صانعه أو موجده. ثم كيف يصح القول بوجود دون واجد؟ تلك هي العقبة الكأداء التي دفعت المفكرين إلى الدخول في متاهات من التسلسل اللامتناهي في محاولتهم تحديد الواجد. فأنا سليل أب وأبي له أب وأبوه جاء من أب كذلك. ولكن إلى متى نظل على هذا التسلسل لنصل إلى وجود الواجد الأول؟

لم يتراجع المفكرون أمام صعوبة الرد على هذا التساؤل. لم يحذوا حذو العلماء الماديين الذي هزوا أكتافهم وكأنهم يتخففون من عبء يثقل كواهلهم وقالوا: لا علينا، حسبنا ما نراه وما هو موجود وسنحصر اهتمامنا بالملموس والمحسوس. لم يفعل المفكرون ذلك. ولو فعلوا لوجدنا الإنسان في حلبة مقفلة يأكل ما يحصل عليه من طعام دون أن يتساءل عن مصدره ويتصرف تبعاً لغريزته المطلقة في حدود تلك الحلبة قانعاً بما هو كائن، يحكمه قانون البقاء

الموقوت. لم يقف المفكرون عند حدود الملموس والمحسوس بل انصرفوا جاهدين في محاولات حازمة لتفسير هذه الظاهرة المحيرة التي تمتد في تسلسل لا يصل بهم إلى نقطة البداية.

وإذا كان العلماء قد تغاضوا عن البحث فيما لا يقع تحت الحس بينما ربط الفقهاء الوجود بالواجد وحسب دون أي تعريف، فإن البحث في هذا الواجد بصفته العنصر الأول والرئيسي في واقعة ما يبدو تمرداً أو عصياناً، بات مقتصراً على ما توافر لدينا من آراء ونظريات خلال الأجيال المتعاقبة تخضعها لمداركنا وعقولنا بعيداً عن مبدأ الشكوكيين، لنأخذ منها ما نستسيغه ونلفظ ما ترفضه أفهامنا ولو إلى حين.

خالق الوجود

يقول المفكرون إن الفاعل الأوّل هو قوة أو قدرة أو طاقة لا تشبه ما نعرفه من قوى وقدرات وطاقات ملموسة أو شائعة إذ لو كانت مثلها لكانت موجودة هي الأخرى ولوجب البحث عن موجدها . وهذه الطاقة التي لا شبيه لها ولا مثيل تتحكم في كل شيء دون أن يتحكم فيها شيء وإلا لكان المتحكّم متحكَّماً فيه كذلك ولانتفت عنه صفة اللاشبيه واللامثيل .

وهذا (الطاقة) التي لا مثيل لها ولا شبيه لا بدّ أن تكون ذات عقل مطلق يستطيع استيعاب كل الحركات والأفعال التي لا تحصى والتوفيق بينها بتناسق وتناغم فريدين . ولا بدّ أن تكون فوق كل نقص أو نقيض أو تناقض لتكون ذات كمال مطلق .

ولما كان هذا الاستنتاج لا يدخل في نطاق الحواس بل في نطاق المنطق العقلاني وكان مجرد فرضية اقتضاها عجز الفكر البشري عن إيجاد تعريف أفضل وأكثر قبولاً فقد أطلقوا عليه اسم ما وراء الطبيعة ــ الميتافيزيقا ــ .

ومن الطبيعي أن يثور جدل حاد وعنيف حول هذا الاستنتاج العقلاني لأنه لا يتخذ صفة المسلمات المطلقة خصوصاً وأن من طبيعة الفكر الإنساني أن يمر في مراحل عديدة قبل أن يصل إلى هذه النتيجة الاستنتاجية .

ولقد اتفق علماء الفكر على أن للفلسفة أصداء ومراحل تعرف بها فقسموها إلى مرحلتين : الفلسفة اليونانية بصرف النظر عن الميثولوجيا أو الفلسفة الأسطورية ، والفلسفة المعاصرة التي جاءت بعد الفلسفة اليونانية . أما الفلسفة الأخرى في الشرقين الأدنى والأقصى فقد استبعدت تماماً لأسباب لا داعي لذكرها في هذا المجال واقتصرت دراستها على المتخصصين وحدهم ولسنا في مجال البحث فيها . حسبنا أن نقول إن الميتافيزيقا انقسمت إلى ما قبل سقراط وما بعده .

وسقراط كما تقول المراجع فيلسوف يوناني ولد بين أعوام ٤٦٨ و ٤٧٠ قبل الميلاد من أم تمتهن القبالة اسمها « فيناريت Phenarete » وأب مثّال اسمه « سوفرونيك Sophronique »

وتوفي بين أعوام ٤٠٠ و ٣٩٩ قبل الميلاد ، وكان باسلاً أنقذ حياة مريده « كزينوفون Xenophon » في معركة « ديليون Delium » ، درس على يد الفيلسوف اليوناني السفسطائي « بروديكوس Prodicus » والرياضي « تيودور » والفيزيائي « ارشيلاوس Archilaos » ، وكان شديد الاهتمام بعلم الكلام والمناقشة ، خرج بنظريات كثيرة أغضبت علماء البيان والسفسطائيين الذين وشوا به كمفسد للجيل ومقاوم للنظام فحكم عليه بالموت بأغلبية مائتين وواحد وثمانين صوتاً ضد مائتين وخمسة وسبعين في المجلس فاختار الموت بالسم وتناوله ساخراً دون أن يحاول الفرار الذي أتيح له أو الاعتذار وبذلك أنهى وجوده الحسي في عالمنا .

هذا هو سقراط الذي اعتبر الحد الفاصل بين الفلسفات التي سبقت وجوده والفلسفات التي جاءت بعده . والسبب في هذا التحديد هو أن السابقين كانوا ماديين طبيعيين أما هو فقد كان أول مفكر تحول من البحث في الطبيعة الخارجية للأشياء إلى البحث في الإنسان والنفس وربطهما بواجد الوجود . ولقد بدأ الفكر قبل سقراط بالفلاسفة الماديين كما نقول وها نحن اليوم نعود إلى الفكر المادي دون فارق يذكر !

والمعروف أن سقراط لم يخلف شيئاً مكتوباً . ولولا ثلاثة من معاصريه الذين خلدوا ذكره لما بلغنا شيء مما يعزوه المفكرون إليه . والذين خلدوا ذكره هم الشاعر الساخر « اريستوفان Aristophane » ٤٤٥ ــ ٣٨٦ ق . م ، الذي كان يهاجم أقواله في قصائده التي جمعت في ملاحمه وخصوصاً في كتابه « السُّحب أو الجموع » ، ومريده « كزينوفون » والفيلسوف «أفلاطون Platon » ٤٢٧ ــ ٣٤٧ ق . م . اللذان جعلاه قمة الفلسفة في مؤلفاتهما ولولاهما لما عرفنا عنه شيئاً مفيداً .

وأفلاطون مريد سقراط وتلميذه . افتتح «أكاديمية» في أثينا بعد رحلة إلى مصر وصقلية وكان ذلك عام ٣٨٧ ق . م . وظلت مؤلفاته مشعل المعرفة حتى القرون الوسطى ثم مرت بعد ذلك بالفكر الكنسي والإسلامي وظلت حتى عصرنا الحديث حيث باتت منطلق تفكير العديد من الفلاسفة المعاصرين . أما كزينوفون ٤٣٠ ــ ٣٥٥ ق . م ، فقد ألف عدداً من الأعمال تحدث فيها عن سقراط وأعماله الفكرية ونظرياته وخصوصاً في مؤلفه : « ما يستحق الذكر » ــ « Les Memorables » ومات في الخامسة والسبعين من عمره .

هذا هو سقراط الذي يعتبر أول المتحولين من المادة إلى الروحية مع أن في الشرق من سبقه إلى ذلك بعشرات القرون لكنهم اعتبروا رسلاً لا فلاسفة . وتحول سقراط من دراسة المادة يشهد بأن الإنسان يدور في حلقة متصلة لا يمكن تحديد نقطة البداية فيها وها نحن اليوم نعود إلى ما قبل سقراط .

والوصول إلى قناعة بوجود واجد أدى إلى البحث في طبيعة هذا الواجد الذي أطلق عليه اسم «الله» أو «الرب» في كل لغات البشر مما يؤكد أن الوجود والواجد كلٌّ يدل على الآخر في حدود المنطق والعقل.

فمن هو الخالق العظيم الذي كان الجانب الرئيسي في ذلك التمرد أو العصيان الذي وقع منذ الأزل؟ إنه خالق هذا الكون بمن فيه وما فيه. هذا كل ما أدخل في روعنا منذ أولى مراحل حياتنا. ولكن ما هو نصيب هذا التعريف من الصحة؟ أهو حقاً خالق هذا الكون كما نؤكد ويؤكدون؟ وإذا كان ذلك صحيحاً ـــ وهو صحيح ـــ ألا يدعونا هذا إلى السؤال عن مكان وجوده وعن الكيفية التي يدير بها شؤون هذا الكون الذي خلقه، وعن الأسلوب الذي يصرف به الأمور إضافة إلى الأدلة التي تثبت صحة وجوده!

لقد طرق أسلاف الإنسان هذا الموضوع على مر الدهور والعصور بصور شتى وعالجوه معالجة ضافية بين مفكرين وباحثين وانقسموا في ذلك إلى شيع ومذاهب شتى. لكن الحسيين ركزوا اهتمامهم على الوجود دون الواجد.

ولما كنا نؤمن بحكمة علماء الغرب ومفكريه وحدهم ونهتدي بآرائهم وأحكامهم فإنني سأورد هنا خلاصة لما أتحفنا به أولئك الأساطين وحدهم لأن الشرقيين أصحاب فكر متخلف يؤمنون بالخرافات والأساطير ولا يليق بالحكماء الغربيين أن يتأثروا بأقوالهم التي تتنافى مع المنطق والعلم في عالم يسعى إلى التطور والرقي، لأن التوقف عند آراء أولئك المتخلفين يجعل المفكر الواعي عرضة لاحتمال التأثر بأفكارهم الساذجة.

لكننا نلاحظ رغم ذلك أن أولئك الأساطين المتطورين والمتعمقين لم يبحثوا في الخالق بشكل مستقل عن الوجود نفسه بل اعتبروا الوجود علّة وجود الواجد واعتمدوا على أربعة مصادر أساسية لإثبات وجوده:

أ ـــ النظريات الميتافيزيقية.
ب ـــ النظريات الروحية.
جـ ـــ النظريات التاريخية.
د ـــ النظريات الفيزيائية.

والنظريات الميتافيزيقية تبدأ من أفلاطون تلميذ سقراط الذي يقول في استدلالاته إن في الفكر البشري حركة تصاعدية حدها الله، فالفكر، عندما يخرج من العالم الحسّي الذي

هو عالم الظاهر، يصل إلى ما يسمى بالوضوح والمعقولية وهو عالم الأفكار أي التصور الذهني. والتصورات الذهنية أو الأفكار هي النماذج الأزلية التي بفضلها تكون الأشياء الزائلة. وعلى قمة هذا الوجود تومض فكرة الأفكار أو ذروة ذُرا الفكر التي هي الله.

وقد يرى بعضهم في أقوال أفلاطون هذه ثرثرة إنشائية بعيدة عن الإقناع، ليكن. سننطلق من أفلاطون إلى «ديكارت Descartes» بخطوة نجتاز فيها عشرين قرناً من الزمن. إن «ديكارت» هذا فيلسوف ورياضي وفيزيائي فرنسي ولد عام ١٥٩٦ وتوفي عام ١٦٥٠م. واسمه الكامل «رونيه René ديكارت» وهو من أقطاب الفكر الغربي ومن أعلامه البارزين.

ترى ماذا يقول ديكارت؟ إنه يؤكد واقع التجربة الضمنية أو التجربة الداخلية التي هي منشأ الكيان الكامل ويقول: «أنا أعرف ما أنا لكنني لا أعرف من أكون! فمن أنا؟ هذا هو السؤال. فالكائن الذي يشك كائن غير كامل لذا أراني لا أستطيع إدراك نقصي، عدم كمالي، دون أن أتصور الكائن اللامتناهي الكمال. ولا يمكن لهذه الفكرة أن تأتيني من ذاتي وهي غير كاملة ولا من العالم الخارجي الذي هو أكثر نقصاً وافتقاراً إلى الكمال، فلا بدّ والحالة هذه من أن تكون قد أعطيت لي من الكائن ذي الكمال الكلي نفسه».

أتكون أقوال ديكارت مجرد ثرثرة إنشائية هي الأخرى؟ لا ضير، لننتقل إذاً إلى النظريات الروحية علها تكون أكثر إقناعاً.

لقد أطلقت هذه التسمية على البراهين التي توفرها المسلمات الوجدانية. إنها تعتمد على أن الواقع المميز للحياة الروحية هي المسؤولية أي الحرية والواجب. ووجود هذا القانون العمومي بالضرورة ولزومه وثباته في الفكر البشري يستوجب وجود مشرع مطلق وقاض أزلي تكون الكائنات الروحية كلها مسؤولة أمامه.

أتكون أقوال منمقة ومرتبة لا تسمن ولا تغني من جوع؟ ليس أمامنا إلا الانتقال إلى النظريات التاريخية التي شرحها «شيشرون» في كتابه «طبيعة الآلهة». وشيشرون هذا هو «ماركوس تيلوس سيسرو Marcus Tilus Cicero» السياسي والخطيب اللاتيني المفوه الذي ولد عام ١٠٦ ق. م. وتوفي عام ٥٢ ق. م. ونظرياته في كتابه العتيد تقوم على أساس المتقبل العام لدى شعوب الأرض وقناعتها. وتتلخص في أن هناك إحساساً مشتركاً لدى كل الأقوام والأمم يُجمع على تحويل البشرية إلى أسرة واحدة، ويبين أن الإيمان الديني سابق على كل وجود حضاري، ولا يمكن أن يتحصل هذا الإحساس إلا من مبادئ غرسها الله نفسه في الفكر البشري.

أما النظريات الفيزيائية، وأعني المادية، فإنها مجموعة استنتاجات استند الفلاسفة عليها للبرهنة على أن الله هو علة النظام والوجود الكوني. واستدلوا على ذلك بنظام الكون نفسه وهو الدليل الذي يطلقون عليه اسم «العلل النهائية». ولقد عبر الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانت Kant ــ ١٧٢٤ ــ ١٨٠٤م» عن هذه العلل باسم الدليل اللاهوتي وهو أقدم كل النظريات وأكثرها شيوعاً لأن سقراط استعمل هذا الدليل في الكتاب الذي نشر عنه باسم: «ترجيحات كزينوفون» والذي أثاره الكاتب اليوناني «بلوتارك Plutarque» المولود عام ٥٠ ميلادي تقريباً والذي نشره في مصر ثم في روما حيث استقر حتى توفي عام ١٢٥م. ولقد أعاد القديس «أوجوستان Augustin» سيد الكنيسة اللاتينية ــ ٣٥٤ ــ ٤٣٠م ــ نشر هذا الكتاب وكان من مهاجمي «المانوية» ومسفهيها، وهي المذهب الفارسي الذي أقامه «ماني» صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام. كما هاجم وسفّه بدعة «دونا» أسقف قرطاجة في القرن الرابع الميلادي التي سماها «الارشيمندريتيه» وهو اللقب الذي يُعرّف به رؤساء الأديرة المسيحية.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل انبرى الأسقف الراهب والكاتب الفرنسي «فينيلون Fenelon» ١٦٥١ ــ ١٧١٥م يؤكدها في صفحات عديدة في كتابه: «بحث في وجود الله». وكان أبرز ما قاله فيه: «إن المهارة الفنية التي تتفجر في كل شيء في الطبيعة تكشف عن تدبير راسخ للوسائل الدالة على هدف ونهاية وترابط بينهما. فهل يمكن لهذا النظام أن يكون مجرد توافق عفوي بين العناصر؟ إن بناءً على مثل هذا الكمال الخارق يفترض حكماً وجود مهندس إلهي».

وأفكار هؤلاء الفلاسفة لم تكن خاصة بكل واحد منهم. فالفيلسوف الألماني «كانت» كان متأثراً بأفكار وفلسفة المؤرخ البريطاني «هيوم ١٧١٤ ــ ١٧٧٦م» والكاتب والفيلسوف الفرنسي «جان جاك روسّو ١٧١٢ ــ ١٧٧٨» والفيلسوف والرياضي الألماني «لايبنتز Leipniz» ١٦٤٦ ــ ١٧١٦م. لذا نراه يطرح أسئلة يحاول الرد عليها فيقول: «ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ ماذا يمكنني أن أتوقع؟».

ولما كانت النظريات الفيزيائية حجة الفيزيائي والرياضي والفلكي المعروف «نيوتن ١٦٤٢ ــ ١٧٢٧» فإن الكاتب الفرنسي «فولتير Voltaire ١٦٩٤ ــ ١٧٧٨م» نهج هذا النهج في بيتين من الشعر قال فيهما: «كلما ازددت في التفكير، قلّت قدرتي على التخيل، إن هذه الساعة تمشي، دون أن يكون لها ساعاتي». وأكد فيهما وجود الخالق المنظم استناداً إلى قوله المعروف: «لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نوجده!».

كل هؤلاء الفلاسفة استدلوا على وجود الله بوجود الكون نفسه، وأجمعوا على أن وجود الكون يعطينا صورة واضحة تثبت أن لكل موجود سلف أعطاه الوجود. ومثل هذا التسلسل لا يمكن أن يدوم إلى ما لا نهاية، فلا بدّ والحالة هذه من الوصول إلى مبدأ مستقل عن الكون يعطي الوجود للموجود ولا يتلقى وجوده من أحد. وهم يرجعون بذلك إلى الدليل الذي يستخلصونه من الحركة باعتبارها وجوداً يستوجب حكماً محركاً لا يحركه أحد. ويعبر «لايبنتز» عن هذا الرأي بقوله: «لا بدّ وأن تكون هناك علة أولية لازمة لكل وجود، علة أزلية مطلقة كلية الكمال».

هذا عن الخالق وما قدره الإنسان منذ آلاف السنين. فهل تراهم جاؤوا بأفضل مما جاء في آيات سورة «الصمد» في كتابنا الكريم؟

أما عن صفات الخالق فقد قال المفكرون: إن الإدراك البشري لايستطيع الحصول على معرفة مناسبة وافية للكيان الأسمى، لكن هذا لا يعني أن الإدراك عاجز عن كل معرفة. و «ديكارت» يؤيد هذا الرأي بقوله: «أنا لا أستطيع أن أضم الجبل بين ذراعي لكنني أستطيع أن ألمسه».

وهذه الفلسفة الروحية تبرز نوعين من الصفات الإلهية: الصفات الميتافيزيقية والصفات المعنوية. الصفات الميتافيزيقية هي:

أ ـ **الأحدية**: لاستحالة وجود كائنين على الكمال اللامتناهي. والدلائل التي تقنعنا بوجود واحد فقط على هذه الصفة لا تبرهن على وجود واحد آخر مماثل لأن اللا متناهي الحقيقي يستنفد كل الوجود ولا يدع شيئاً للتعددية. ثم إن إدراك كائنين كاملين يستتبع حكماً قيام تناقض بينهما لأن كلاً منهما سيكون حكماً أقل من كائن واحد لا مثيل له.

ب ـ **الفردية بمعنى عدم التركيب**: ذلك أن الكائن الكامل لا يمكن أن تكون له أجزاء أو أن ينقسم إلى كسور. لذا فإن كل كمالات الله ليست إلا كمالاً واحداً. وإذا كنا نعددها فما ذلك إلا لضعف فكرنا وإدراكنا ـ لاحظ أننا نقول في الرياضيات العدد الصحيح ولا نقول العدد الكامل ـ.

جـ ـ **الثبات بمعنى عدم التغير**: لأن ما هو كائن في حد ذاته لا يمكن أن يتغير لأنه يحوي علة كينونته نفسها وهي جوهره وروحه. وكامل الكمال لا يمكن أن يستزيد منه شيئاً لأنه ممتنع عن التناقض فهو إذاً ثابت في جوهره وفي روحه.

د ـــ **الأزلية**: وهي النتيجة الطبيعية للثبات أي للامتناع عن التغير. والزمن هو مقياس التغير وليس في الله زمن لأنه لا خلف له ولا تعاقب، لا ماضٍ فيه ولا مستقبل بل حاضر واحد يضم كل ذاته في بساطتها الثابتة.

هـ ـــ **العظمة والجسامة**: إذ لا يمكن لكائن كامل أن يُحدّ بمكان كما لا يمكن أن يُحدّ بزمان. فهو بالقطع ليس هنا وهو بالقطع ليس هناك. إنه الكائن المتفوق وبعبارة أدق إنه هو هو.

أما عن الصفات المعنوية أو الروحية فإنها: الذكاء لكونه العليم، والعلم والحكمة والقدرة الكلية والحرية والعناية وهي مجموع الصفات التي يحكم بها الله الكون. وتشمل كذلك الطهارة والعدالة والطيبة والمحبة، فهو عليم حكيم قدير، حرّ فيما يفعل، رؤوف وعادل ورحيم.

وجدير بالذكر أنني نقلت هذه الصفات من مؤلفات علماء الفكر الغربيين لا من كتابنا الكريم ومرجعنا الأوحد ولا من أقوال فقهاء المسلمين. ولا أظن أنني أحتاج إلى التعقيب على هذه الصفات أو شرحها وتفسيرها لأنها واضحة وبينة. أرأيت الفارق العظيم بين أفكار الفلاسفة الغربيين وما سبقناهم إليه نحن معشر المتخلفين!

لقد حفلت مكتبات الغرب بالكتب التي تبحث في كنه الله العظيم أكثرها قدماً كتاب «شيشرون» ـــ طبيعة الآلهة ـــ الذي صدر عام ٤٤ ق.م. كما سبق القول وفيه استخدم المؤلف شخصية «فيلوس» ليشرح بلسانه نظرية الفيلسوف اليوناني «أبيقور Epicure ـــ ٣٤١ ـــ ٢٧٢ ق.م ـــ» صاحب نظرية الانغماس في الملذات التي توفرها الرغبات للإنسان شريطة أن يكون متحكماً فيها. كما استخدم شخصية «باليوس» ليشرح بلسانه نظرية «الثبوتيين» وشخصية «كوتا» ليتكلم بلسان المؤلف نفسه الذي اغتيل بعد عام واحد على صدور كتابه بجريرة ما جاء فيه.

ومن الكتب الحديثة نسبياً «البرهان على وجود الله وصفاته» للكاتب الإنكليزي «صامويل كلارك ـــ ١٦٧٥ ـــ ١٧٢٩ م» وفيه يدحض آراء الفيلسوف الإنكليزي «هوبس Hobbes ـــ ١٥٨٨ ـــ ١٦٧٩م» صاحب فكرة «المادية الآلية» الذي يجمع بين الرغبة والخوف ويقول: «إن الإنسان ذئب للإنسان لذا فإنه إذا شاء أن يعيش في المجتمع فإن عليه أن يتخلى عن حقوقه لصالح حاكم مطلق يقيم النظام العام». ويدحض كذلك آراء الفيلسوف الهولندي «باروخ سبينوزا Baruch Spinoza ـــ ١٦٣٢ ـــ ١٦٧٧م» التي اعتمد عليها

« هوبس » . وقد صدر الكتاب عام ١٧٠٥ . « وسبينوزا » كما نعلم يهودي حاول الحصول على مرتبة الحاخام لكنه استبعد من المجموعة اليهودية عام ١٦٥٦ الأمر الذي جعله يتوجه بفلسفته إلى ما كان يؤمن به « هوبس » من آراء .

وكتاب « فينيلون » الفرنسي : « بحث في وجود الله وصفاته » يرد فيه على نظرية الأبيقوريين وقد صدر الجزء الثاني منه بعد عام على وفاته . وكتاب المتنبئ الفرنسي « بوسويه Bossuet ــ ١٦٢٧ ــ ١٧٠٤ » الذي يقع في خمسة أجزاء ، وفيه يستمد نظرياته من فلسفة القديس توماس أكثر مما يستمدها من آراء « ديكارت » نفسه .

وطبيعي أن تكون هناك آراء مخالفة للنظريات التي أوردتها في هذا المجال . فأتباع الفكرة « الثنوية » أو « المثنوية » و « الحلوليون » ينقضون صفة الأحدية التي بينتها . لكن اختصار الآلهة إلى اثنين بعد أن كان عددهم يفوق أصابع اليدين خطوة هامة تبين المستوى الذي بلغه إدراك الإنسان الذي كان يقيم لكل ظاهرة « إلهاً » يقدم له الضحايا والقرابين ليسترضيه وليحصل على بركته . وهذا الاختصار الذي اقتصر على إلهين اثنين : النور والظلام أو الخير والشر ، أسقط آلهة الإغريق والرومان عن عروشهم وأقام سداً منيعاً بين التعددية والفردية دونه سور الإسكندر الأكبر في الصين . لكن هذه النظرية تتهاوى اليوم تلقائياً أمام المنطق والتحليل الفكري . والحلوليون ، أصحاب نظرية وحدة الوجود ، يفترضون أن الله خلق الوجود من جوهر ذاته . ولقد شاعت هذه النظرية في الهند أولاً ثم أصبحت مذهباً فلسفياً لدى الإغريق ، الرواقيين والأفلاطونيين ، ثم تشذبت حتى دان بها عدد من المفكرين المسلمين والمسيحيين .

كان الرواقيون يرون أن الله روح الوجود وجوهره لأنه فكر ومادة بآن واحد ، وأنه كمادة ليس إلا ناراً بناءة غير مدمرة متحدة بالوجود تنظمه وتخلق الحركة فيه . وصاحب هذه الفلسفة اسمه « زينون Zenon » وهو يوناني ولد عام ٤٩٠ ق . م وتوفي عام ٤٣٠ ق . م . لكنه جاء بآراء متناقضة من حيث المبدأ كقوله « لن يتمكن آشيل من اللحاق بالسلحفاة » ، وآشيل كما نعلم هو الشخصية الرئيسية في إلياذة « هوميروس » والمثال لكل القدرات والقوى اليونانية ، كانت نقطة ضعفه في كعب قدمه . وقوله « السهم يطير لكنه لا يتحرك » وهي أقوال يطرح فيها انقسام الحركة والامتداد . وقد أطلق على أنصاره اسم « الرواقيون » لأنهم كانوا يجتمعون تحت رواق لسماع أقواله .

أما الأفلاطونيون فكانوا يرون أن الكائنات التي تشكل الوجود لاتني موجودة في الله ذاته رغم أنها منبثقة عنه . وأفلاطون كما نعلم « Platon » فيلسوف يوناني ــ ٤٢٧ ــ

٣٤٧ ـــ ق. م، تلميذ سقراط. وأُنبه هنا إلى وجوب الانتباه في فلسفة أفلاطون لكي لا نخلط بين اسمه واسم «بلوتون Pluton» إله الجحيم عند اليونان لأن الاسمين لا يختلفان إلا بحرف واحد في الكتابة باللغة الأجنبية.

ولقد ظلت نظرية أفلاطون غامضة الأبعاد وبين أخذ ورد حتى جاء «سبينوزا» فأعطى الحلولية بعداً هندسياً بقوله: «الله هو الجوهر الفرد المتفرد الأزلي واللانهائي والصفات النهائية لا يحصى عددها لكننا لا نعرف منها غير صفتين: الفكر والامتداد. ولما كان الله هو الفرد الأوحد فإن من البديهي أن يكون كل شيء موجوداً فيه ومنه. إنه العلة المباشرة لكل ما هو موجود. والمخلوقات ليست أكثر من صيغ خاصة لصفات الجوهر الإلهي الذي يتطور وفقاً للقوانين اللازمة لطبيعته وبالتالي فإن الحتمية الكونية ليست إلا نتيجة طبيعية لهذه الحلولية».

ونلاحظ أن سبينوزا أراد أن يقول شيئاً مختلفاً عما سبقه إليه الإغريق الرواقيون والأفلاطونيون لكنه لم يخرج عن مرامي قولهم في هذا الصدد. ونلاحظ كذلك أن المثالية الذاتية التي نادى بها الفيلسوف الألماني «فيخته أو فيشتيه Johann Fichte ـــ ١٧٦٤ ـــ ١٨١٤ م» تلميذ «كانت»، والمثالية القصدية التي نادى بها «فريدريك هيجل Fredrich Hegel ـــ ١٧٧٠ ـــ ١٨٣١» الفيلسوف الألماني ليستا إلا لوناً من الحلولية اقتبساه عن سبينوزا. و«هيجل» هذا يعتمد على الوجود والفكر في مبدأ فريد وهو صاحب مبدأ «الديالكتيكية» الذي كان الشيوعيون ينشرونه بصورة خاصة لبيان مفهوم التطور في الحياة. وهو مؤلف «الظاهرانية» أو علم الظاهرات الفكرية كما تبدو بصرف النظر عما وراءها من حقائق أخرى، وهو كتاب صدر عام ١٨٠٤ باسم «Phenomenologie» إضافة إلى كتابي «علم المنطق» ـــ ١٨١٢ ـــ ١٨١٦ و«مبادئ فلسفة الحق ـــ ١٨٢١ ـــ».

هذا باختصار شديد ما أجمع عليه الفكر البشري حول الوجود والواجد، اعتمدت في إيراده على المصادر الأجنبية وحدها حسماً لما يدين به بعضهم الفلسفة الإسلامية بتهمة تسخير الفكر في دائرة الدين بحيث يصبح الخارج عنها كافراً يستحق القتل، لذا فإن أقوال المسلمين ليست فلسفة ولا فكراً بل مجرد سفسطة وصناعة كلامية. وحجة أصحاب هذا الفكر الجائر أن المفكرين المسلمين الحقيقيين كانوا يقتلون في العصر الإسلامي بأقوالهم أو يُنكل بهم أينما كانوا وأن أبرز دليل على صحة رأيهم هو انتحال أصحاب الفكر العميق أسماء مستعارة كإخوان الصفا مثلاً ليتجنبوا سوء المصير، وأن هذا التصرف كان يؤدي بالضرورة إلى إغفال أفكارهم المتعمقة أو تداولها في أضيق الحدود رغم أنها مستمدة كلها من الفلسفة اليونانية!

والذين ينكرون وجود واجد يرون أن الله الذي ينادي به المؤمنون هو الوجود نفسه بل هو المخلوقات «الجماهير» وحسب. وهذا لون من الحلولية كما ترى لا يقوم على أساس ولا يدعمه منطق.

ولقد سبق المعاصرين من أصحاب هذا الفكر أسلاف من أمثال «طاليس Thales ـــ ٦٢٥ ـــ ٥٤٧ ق. م» الرياضي والفيلسوف اليوناني الذي كان يرى الماء الأصل في كل الأشكال والأشياء وأنه روح الحياة ومنشئ الحركات والاستعمالات والتطورات التي نشاهدها في المادة. وهو قول لا يختلف عن معتقدات قدماء المصريين وإيمانهم بالماء الأزلي ويتفق إلى حد ما مع العقيدة الإسلامية التي تؤكد أن الله سبحانه جعل من الماء كل شيء حي مع فارق واحد هو أن الله خلق الوجود من الماء «والتراب».

والأبحاث التي أجريت حول طقوس تأسيس المعبد المصري القديم وافتتاحه منذ أقدم العصور حتى نهاية الدولة الحديثة تؤكد أن المصري كان يؤمن بأن المادة الأزلية التي لا تنضب قد انبعثت من غموض اللاكيان لتبعث الحياة في الوجود، وأن هذه المادة الأزلية هي الماء «نون» بلغة قدماء المصريين. وقد ذهب بعضهم إلى الجمع بين «نون» هذه والآية الأولى من سورة «القلم» التي تقرأ «نون» والقلم وما يسطرون وقدروا أن الله يقسم في هذه السورة بالماء الأزلية والقلم.

ويقول «اكسيمندريس» إن السماوات المتعددة في العوالم اللامتناهية هي الاله في حين يقول «فيثاغور Epicure» إن الواحد هو الخير وهو الإله أما الاثنان فهو غير المحدود أي الشر، ومن هنا نشأت المثنوية إلى حد ما وإن لم تأخذ بمبدأ اللذات المطلقة. ويقول الفيلسوف اليوناني «آنا كزيمين» من المدرسة الأيونية في القرن السادس قبل الميلاد إن الله هو الهواء يذهب ويعود، كل شيء يصدر عنه وكل شيء يرجع إليه. وهذه المدرسة الفكرية التي جمعت بينه وبين «طاليس» في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد كانت تحاول ردّ كل شيء إلى الماء في رأي الأول وإلى الهواء لدى الثاني، في حين جاء «ديوجين Diogene ـــ ٤١٨ ـــ ٣٢٨ ق. م» بعدهما يعزو الذكاء إلى المبدأ الأوحد بينما كان «هيروقليتس» يقول إن الناس هم أساس كل شيء وإن وقف حائراً أمام التغيّر، فكل شيء يدور ويمر ولا شيء يسكن ويستقر والمرء لا يستحم في ماء واحد مرتين».

ولقد ظلت نظرية الحلولية الرواقية قائمة حتى «ايبكتيت Epictete الفيلسوف اللاتيني ـــ ٥٠ ـــ ١٣٠م» و «ماركوس اوريلس ـــ مارك اوريل ـــ الروماني ـــ ١٢١ ـــ

١٨٠م» اللذين جعلا المادة معادلة للقوة التي تتغلغل فيها وتشكل ــ الطاقة ــ . والأجسام في رأيهما هي الكائنات الوحيدة في الطبيعة . لكن مبدأ الفَعَال والسبب والقوة لا ينفصل عنها . فليس هناك مادة دون قوة ولا قوة دون مادة لذا فإن القوة نفسها تنفذ إلى المادة وتملأ معها الفراغ وهذه القوة تخلق الحركة والتناسق فهي روح العالم وهي الله . وبإيجاز شديد الله هو الطاقة .

ومنطق الرواقيين هذا يؤكد أن الانطباع ليس إلا الانفعال السلبي المطاوع فلا يقوم إدراك أو تمييز إلا ويصحبه إثبات وتمييز وبالتالي جهد . وتسلسل الأفكار وترابطها ليس إلا عملية مشتركة بين الإرادة والعقل ، والتجربة أساس كل معرفة . بل إن المبادئ التي تحكمها وتوجهها إنما تشتق من خبرة أسبق ودرجة أكثر سمواً .

وعلماؤنا المعاصرون الذي لا يقنعهم شيء غير النتائج المستخلصة من التجربة والمشاهدة على المادة الملموسة لا يختلفون في شيء كبير عن الرواقيين من حيث تسلسل المنطق . فالفضيلة عند الرواقيين أن يعيش المرء وفقاً للطبيعة أي وفقاً للعقل ، وهي تنحصر في أن يخلق الإنسان في نفسه الانسجام والتناسق مع أترابه لأن الناس إخوة والتناسق بينهم هو العيش مع الطبيعة كلها . أما فلسفة « ايبيكتيت » فتقول : « تحمل وامتنع ، تلك هي الفضيلة وهي عماد الفلسفة الأخلاقية » .

وإذا كنت أكرر ذكر الرواقيين في هذا البحث فذلك لأن تسلسل مفهومهم الفلسفي ظل مستمراً مع تغيير بسيط حتى القرون الوسطى بل وحتى عصرنا الحاضر . وسأعرّف القارئ بأكثرهم شهرة لأيسر له المقارنة بين تلك الأفكار وما نراه اليوم حقيقة لا تحتمل النقاش .

ومن أشهر الرواقيين الفيلسوف وعالم المنطق اليوناني « كريسيبي Chrysippe ــ ٢٨١ ــ ٢٠٥ ق . م» الذي أكد فلسفة « زينون » المناقضة والمعادية للأبيقورية ــ نسبة إلى الفيلسوف «أبيقــور ــ في حين أن «أريسطــو Aristote الشيــوي ــ ٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق . م» معلم الإسكندر الأكبر ومؤسس المدرسة المَشَائية في أثينا وصاحب العديد من المؤلفات في المنطق والسياسة وعالم الأحياء ــ البيولوجيا ــ والتشريح المقارن وتصنيف الحيوانات والميتافيزيقا ، ظلت فلسفته قاعدة للفكر المسيحي حتى العصور الوسطى ولعبت دوراً حاسماً في فلسفة الإسلام . ولا ننسى ذكر الفيلسوف اليوناني «ديوجين Diogène السيلوسي ٤١٣ ــ ٣٢٨ ق . م» الذي كان يرى في الثروات والترتيبات الاجتماعية عائقاً

للحرية، و «بوسيدونيوس» المؤرخ والفيلسوف اليوناني ــ ١٣٥ ــ ٥١ ق. م» الذي عاش في سورية ومات في روما، والكاتب اللاتيني «سينيك Lucius Seneca ــ ٢ ق. م ــ ٢٥ م» ومؤلفاته في المنطق والبلاغة لتنتهي عند «ايبيكتيت» و «مارك اوريل».

ولقد توقفت طويلاً عند الرواقيين لأخرج بنتيجة مؤكدة تبين أنهم لم يفسروا مصدر المادة أو الطاقة بل أخذوها وجوداً قائماً واعتبروها أساساً للوجود.

والفلاسفة المعاصرون الذين عادوا بعد «ديكارت» يرون في المادة الصفات الأولية والصفات المساعدة، يقولون إن الصفات الأولية لا تقع تحت حواسنا كالامتداد والغموض ــ وعدم النفاذ ــ وما إلى ذلك في حين أن الصفات المساعدة كاللون والصوت والرائحة وما إلى ذلك هي التي نحسها.

ومن الطبيعي أن يقوم جدل بين هؤلاء الفلاسفة حول التصنيف أكثر من أي شيء آخر لذا وجدنا الفيلسوف والاقتصادي البريطاني «جون ستيوارت ميل Mill ــ ١٨٠٦ ــ ١٨٧٣ م» صاحب البحث في السببية العالمية ومبدأ النفعية والتقيد بالاقتصاد الحر في مؤلفيه «مبادئ الاقتصاد السياسي ١٨٤٨» و «النفعية ١٨٦٣» يدخل الصفات الأولية في حدود الحواس مع «لايبنتز» و «بيركلي» بزعم أن الامتداد هو مجرد ظاهرة تتصل بحواسنا في حين أن المادة نفسها تتحلل إلى قوى ــ طاقات ــ مكدّة ونشطة.

لكن هناك فلاسفة آخرون يجهرون بالمادية الفلسفية والميتافيزيقية. إنهم الفلاسفة الماديون مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه التسمية لا تنسحب حكماً على المنادين بالمادية الأخلاقية أو أنصار المادية التاريخية. فالماديون ميتافيزيقيون وثوقيون ينكرون وجود الله واليوم الآخر وخلود الروح والحرية على عكس الذين يرون في هذه الأشياء مشكلات يتعذر على الذكاء البشري حلها.

وكلمة «وثوقيون» هنا تعني أولئك الذي يؤمنون بشيء ما دون حاجة إلى برهان أو مقومات ثبوتية. وهو تعريف يضعف مركزهم كما ترى لأنه يبين أنهم ينكرون وجود الخالق دون دليل يفسر علة هذا الوجود.

وهذه المجموعة تضم «الذريّون» وعلى رأسهم «ديموقريطس Democrite ــ ٤٦٠ ــ ٣٧٠ ق. م» الفيلسوف اليوناني الذي يرى أن الطبيعة مؤلفة من ذرات تحكمها حركة آلية، و «أبيقور» والشاعر اللاتيني «تيتوس لوكريتوس ــ ٤٨ ــ ٥٥ ق. م» صاحب «الحركة الطبيعية» المستوحاة من الفلسفة الأبيقورية. وقد انضم إليها الطبيب الفرنسي الفيلسوف

والرياضي « جوليان لاميتري ــ ١٧٠٩ ــ ١٧٥١م » صاحب كتاب « تاريخ طبيعة الروح » الذي أثار ضجة واضحة بسبب فكرته المادية ، والفيلسوف الفرنسي من أصل ألماني « بول هنري هولباخ ــ ١٧٢٣ــ ١٧٨٩ م » الذي تعاون في إصدار « الموسوعة » وكان مادياً ملحداً هاجم الكنيسة والملكية . ولم تختلف المبادئ التي نادى بها هؤلاء حتى جاء « فوكت » و « موليشوت » و « بوخنر » في القرن التاسع عشر فطوروا ماديتهم إلى مادية ديناميكية وخرجوا بنظريتهم التي تقول : « لا مادة دون قوة ــ طاقة ــ ولا قوة دون مادة » .

وإذا انتقلنا إلى أقوال الجانب الآخر من أمثال « دوجيراندو » الذي خلّف مؤلفات غاية في العمق والتأمل ، فإنه يقول : « كل خلق ليس إلا إدماجاً وتوفيقاً » . وقد عنى بكلمة الخلق هذه الإبداع أي إيجاد ما لم يكن موجوداً . لكنها في التعبير الفلسفي تعني من الناحية الميتافيزيقية « الفعل » الذي به أحدث الله العالم وأعطى له وجوداً متفرداً .

وتختلف الأديان عند هذه النقطة اختلافات ثانوية أو جانبية . فاللاهوت الكاثوليكي يقول : « إن الله أحدث الوجود دون الاستعانة بأي مادة سابقة على الوجود وإنه أوجده بفعل حر من إرادته وخلق كل شيء لمجده لأنه ما من سبب من خارج ذاته قادر على أن يدفعه إلى خلق الوجود . فهو أول كل خلق وآخر كل مخلوق . ولما كان الله قد أقام مجده على سعادة المخلوقات التي هي من صنعه ، فإن سعادة الكائنات المخلوقة هي الغاية الثانوية من خلقه الخلق » .

لكن المفكرين يعترضون على مذهب الخلق هذا بقولهم : « لو أن الله لم يخلق العالم لنقص شيء من مجده وبالتالي من كماله ، فالعالم إذاً ضرورة لمجده لذا فإنه أزلي في وجوده » .

ويرد اللاهوتيون قائلين : « إن المجد الذي يستمده الله في الخليقة مجد عارض لا يغني جوهره بشيء لذا فإنه كان قادراً على أن يستغني عن الخلق دون أن ينقص شيء من مجده » .

لكن المفكرين لا يرون في هذا التحليل رداً مقنعاً فيقولون : « إن الله لكونه ثابتاً لا يتغيّر لا يستطيع أن يخرج من سكونه ولا أن يدخل فيه فالخليقة إذاً أزلية » .

فيرد الجانب الآخر قائلاً : « إن فعل الخلق يمكن أن يُنظر إليه من حيث العلة كما يُنظر إليه من حيث النتائج . فإن نظرنا إليه عليّا ، أي من حيث العلة ، وجدنا أن الله أزلي لا يستطيع أن يبدأ ولا يستطيع أن ينتهي . أما إذا نظرنا إليه من حيث النتائج ، أي من حيث المخلوقات التي تعمر الأرض والوجود ، فإننا نراه خاضعاً للزمن . فالله موجود في الأزل والعالم يلد في الزمن » .

نقاش وجدال يحتدمان حيناً ويخبوان أحياناً لكن الحصيلة المتحصلة يمكن إيجازها بعبارة : إنَّ الله خلق كل شيء وسكن ، أي أنه وضع نظام الخلق والتعاقب وكل ما في الطبيعة من قوانين وحركة وتفاعُل ثم سكن بحيث بات لا يستطيع فعل ما لم يسبق فعله . وهذا يخالف نصوصاً صريحة وواضحة في الدين الإسلامي وإن كان نفر من المجتهدين المسلمين قد أخذوا به .

لقد شارك بعض المفكرين المسلمين اللاهوت المسيحي على طريقتهم واستشهد بعضهم بحديث « قدسي » يقول : « أردت أن أعرف فخلقت الخلق لأُعرف به » ، بذلك أعطى هذا الجانب من المفكرين علة الخلق الأساسية لرغبة الخالق في أن يُعرف وحسب . وذهب أهل الفكر من المسلمين مذاهب شتى في الخلق والمخلوقات والسياق الكوني والأزلية والفعل والفاعل يمكنك مطالعتها في كتب كثيرة .

في كل ما سبق نخلص إلى استحالة البحث في الخالق دون ربطه بالوجود . ولئن اختلف المفكرون الذين أجمعوا على وجوده في تحديد صفاته فإن خلافهم حول الخليقة رغم إجماعهم على وجودها ، أمر بديهي يأتي بالتبعية .

ولكن ما هي العلاقة بين ما قاله « دوجيراندو » وما قاله المفكرون من قبل ومن بعد ؟ إن عبارة « دوجيراندو » تعطي تفسيراً مقبولاً للخليقة وبالتالي للخالق ذاته : « إدماج وتوفيق » . ولكنها لا تفسر كيفية الخلق . وقوله إن الإبداع إدماج وتوفيق ، يؤكد حدوث الخلق من عناصر مختلفة أحسن التنسيق بينها . أما الله ، فإنه جوهر فرد ، وهو تعريف يقبله المسيحيون والمسلمون على حد سواء . والخلق مركّب ، وهذا صحيح ، إذ لو خلق الخلق من مادة واحدة لكان ثابتاً ثبات الجوهر الفرد لأنه لن يجد ما يؤثر فيه ولانتفتْ بذلك الأفعال والتطور والتفاعل لأن لكل رد فعل كما نعلم فعلاً سابقاً عليه .

وعناصر هذا الكون تتحد وتتنابذ ، تتقارب وتتباعد وتتفاعل لتصدر عنها طبيعة جديدة تحمل شيئاً موروثاً من صفات أسلافها ثم تتحلل ، أي ينفصل بعضها عن بعض لتفنى في ذاتها ولتتحول إلى طاقة تتجسد من جديد وتتفاعل وتفنى في دورة منظمة محسوبة وهكذا دواليك .

فنحن نعرف ــ في حدود علمنا ــ أن الماء اتحاد بين غازين وأننا نستنشق الهواء الذي يدخلان في تركيبه إضافة إلى غازات أخرى . لكن الهواء لا يغنينا عن الماء لعدم تجانس النسب فيما نستشفه منه . أما الأسماك فإنها زودت بأجهزة تستخلص الهواء من الماء ، أي أنها تحلله إلى مركباته فتأخذ ما ينفعها وتطرح الباقي .

ونعرف ـــ في حدود علمنا كذلك ـــ أن لكل ذرة في هذا الوجود نواة تدور حولها الكترونات ونيوترونات محملة بشحنات متساوية من كهربية سالبة وموجبة إضافة إلى بروتونات تدور حولها في مدار دقيق ومنتظم وثابت .

فكل شيء إذاً مركب بإدماج وتنسيق يشكلان إبداعاً معجزاً يخضع لقانون ثابت مسيطر . والتغيرات التي نشاهدها ونلمسها في كل شيء ليست إلا الظاهر الملموس والواضح لتفاعل المركبات فيما بينها وتناغمها وفق النظام الدقيق الذي أودع فيها .

ولو كان الخالق مركباً هو الآخر لوجب أن يتأثر بتفاعل العناصر الداخلة في تركيبه ولنتج عن ذلك اختلاف بيّن في أحكامه وأفعاله . والمرء يتخذ قراراً حكيماً إذا كان هادئ النفس سليم البنية بعيداً عن الانفعال ، لكن قراره يتخذ طابعاً آخر مختلفاً فيصبح رعنا أو انفعالياً أو عدوانياً أو سلبياً إلى آخر ما هنالك من تناقض ونقائص إذا كان واقعاً تحت تأثير عوارض معينة مؤثرة . ولو كان الخالق مثلي ومثلك لاضطرب الكون ولعمت الفوضى ولما استقرت الخليقة على حال ولانتفى النظام والتناسق .

فالخالق إذاً بسيط غير مركب وهو استنتاج سيبقى قائماً حتى يأتي بعضهم بتعريف أكثر دقة وإيجابية . والذين يصرون على أنه مادة لا بدّ وأنهم يعنون أنها مادة خاصة لا تخضع لقوانين المادة التي اهتدينا إلى معرفتها . ومجرد كونه مادة مختلفة عن المواد التي نعرفها ، مادة ممتنعة عن الانفعال بما تتأثر به المواد الأخرى التي أحصيناها وحددنا جواهرها ، فإنه والحالة هذه ذو طبيعة مختلفة عن المواد التي نعرفها . ولئن توصل العلم ذات يوم إلى معرفة كنه المادة التي هو منها ، فإن العالم لن يعدم فكراً نيراً يناقش الكشف الجديد ويحلله . وبانتظار ذلك اليوم ، حسبنا ما عرفناه . واستناداً إلى هذه المعرفة على ضآلتها ، نخرج باستنتاج لا لبس فيه ولا غموض يؤكد أن الخالق مادة تفعل في كل المواد التي نعرفها دون أن تكون لهذه المواد مجتمعة أو منفردة أي تأثير أو فعل عليها .

ولئن عجزنا كما عجز غيرنا عن تحديد كنه هذا الخالق بمعادلة رياضية أو بكشف مخبري أو هندسي محدد الأبعاد ، فإنَّ عجزنا هذا لن يقعدنا عن الاستنتاج . لا بدّ من تحديد كنه هذه الذات لتعريف الجانب الرئيسي في حادث التمرد الذي نبحث فيه .

والذين يزعمون أن الله مجرد مادة يفترضون ولا ريب أن تكون تلك المادة عاقلة مفكرة منظِّمه متمتعة بقدرة معجزة في الإبداع الخارق وفي الخلق وفي التنسيق بين ما تخلق . وهنا يصبح الاختلاف منحصراً في التسمية وأعني في الاسم الذي نطلقه على تلك المادة الخارقة .

ولئن عجزت عن تحديد كنه الخالق بطريقة قاطعة وحاسمة، فإن تعريف المادة أو الطبيعة سهل وممكن.

ولقد أطلنا الحديث عن المادة فلم يبق إلا أن نوجز ما اصطلح عليه عمالقة الفكر الغربي في تعريف الطبيعة لنصل بذلك إلى تحديد «طبيعة» الجانب الرئيسي الأول في حادثة التمرد العجيب الذي نبحث فيه ونحلله.

فالطبيعة لغوياً هي مجموع الكائنات والأشياء التي تشكل الوجود. هذا ما تقوله كل الموسوعات العلمية ولا أدري ما إذا كان للقارئ اعتراض على هذا التعريف. أما الفلاسفة فإنهم يطلقون اسم الطبيعة على العالم المحسوس والكون الفيزيقي كما يطلقونه على مجموع الأشياء والكائنات، الروحية منها والمادية على حد سواء باعتبارها خاضعة لقوانين مشتقة من صفاتها الفطرية.

ولقد حدد «جوزيف جيروم لالاند ١٧٣٢ ــ ١٨٠٧» وهو الفلكي الفرنسي الذي يدين له العلم بواحدة من أوليات المقاييس الدقيقة للتغير الظاهري في القمر حسب زاوية الرؤية في عام ١٧٥١م وأعمال الميكانيكية السماوية وجدول النجوم عام ١٨٠١، المعنى الغامض للطبيعة فقال: «إنها مجموعة صفات كائن ما، وانطلاقاً من هذا المفهوم نخلص إلى أن هناك طبيعة إلهية».

أما عن كلمة مادة التي اشتق منها الماديون تسميتهم، فإن تعريفها لغوياً يدلّل على الجوهر أو الماهية التي صنع منه الشيء. وهو الجوهر الذي يشكل حيزاً في الوجود ويقبل الانقسام ويقع تحت دائرة الحواس. في حين أن الفلاسفة يفسرونها بأنها ما صُنع منه الشيء وحسب. وهي لا تقابل بالضرورة كلمة «روح» بل كلمة «شكل». ولقد أوردت فيما سبق التفسيرات الكثيرة لأصل المادة عند الفلاسفة.

ونحن نرى، ببساطة الإنسان العادي وطاقته الفكرية، إن المادة لا يمكن أن تكون عاقلة إذ لو كانت كذلك لدافعت عن وجودها ضد عبث البشر بتعقل وتخطيط مدروس. فالحديد مثلاً وهو مادة، يتحول إلى أوكسيد بفعل الرطوبة أي بتفاعل غازي الهيدروجين والأوكسجين معه وتتلفه الأحماض فتحلله وتذيبه الحرارة وتصهره ويشكل الإنسان منه أدوات معينة يستعملها بكل تسلط وامتهان وإذلال لا يمكن لمادة عاقلة أن ترضى به مصيراً.

ونحن نعرف نيفاً وثلاثة وثمانين عنصراً حتى الآن، سبعة وستون منها عرّفناها باسم المعدن لأنها تشترك فيما بينها بخصائص متقاربة كالقدرة على عكس الضوء وقابلية التطريق

ونقل الحرارة والكهرباء والتحول إلى أكاسيد قاعدية إلى آخر ما هنالك في حين أننا أطلقنا على العناصر الأخرى اسم « أشباه معادن » ومنها الأوكسجين وهو غازي والزئبق وهو سائل .

لكن قدماء الكيميائيين ما كانوا يعترفون بأكثر من سبعة معادن يؤكدون أنها مشتقة من مصدر واحد ومكوّنة بتأثير الكواكب وهي الذهب الذي كونته الشمس والفضة التي كوّنها القمر والزئبق صنيعة عطارد والرصاص صنيعة زحل والقصدير والحديد والنحاس صنعتها الكواكب الثلاثة المتبقية وهي المريخ والزهرة والمشتري . وكانوا يقسمونها إلى معدن كامل كالذهب والفضة اللذين لا يتغيران ومعدن غير كامل لأنه يتحول إلى أكاسيد بفعل النار والهواء ويتأثر بالأحماض .

وبمقارنة هذين المفهومين ، القديم والحديث ، يمكننا أن نستخلص مدى التطور والتقدم اللذين طرأا على الفكر البشري وعلى علم الإنسان ومعرفته وإدراكه .

وإذا كان تركيبنا مادياً كما يقول العلماء فإننا قادرون على التحكم في كل المواد وتسخيرها في حين أنها تعجز من جانبها على التحكم فينا بالمثل . فكيف نفسر ذلك ؟ إذا كنا نحن « مادة » وكانت هي الأخرى « مادة » يدخل بعضها في تركيبنا ، أليس غريباً أن نكون قادرين على تسخيرها واستخدامها بتخطيط مدروس لخدمة أغراضنا في حين تعجز من جانبها عن فعل ذلك بنا إلا كرد فعل معين لما نفعله بها ؟

إن المبرر الوحيد لقدرتنا هذه إزاء ضعفها والتفسير الأوحد لهذه الظاهرة هو العقل الذي نمتلكه والذي تفتقر من جانبها إليه . فالعقل إذاً مصنوع من « مادة » أكثر ذكاء من مادتها وأرقى من حيث النوعية وأشد اقتداراً . فما هي هذه المادة « السوبر مادية » التي نملكها ومن أين جاءت إلينا ؟

ولو كانت المادة هي التي خلقت الكون ، أي أبدعته وكونته ، ولم تكن علته وحسب لكان من غير المعقول ولا المستساغ القول بمادة أدنى قادرة على خلق مادة أسمى . ونحن نعرف بالتجربة والممارسة أن الإنسان « يخلق » من الموجود تكويناً جديداً . لكنه يظل أبداً مالكاً لناصية هذا التكوين الجديد وقادراً على إتلافه في أي وقت شاء وليس العكس إلا إذا أساء استعماله .

ومن هنا نستنتج أن المادة موجودة وليست واجدة ، مخلوقة لا خالقة ، وأن الإنسان في حد ذاته مادة ذات طبيعة . لكن تركيبه يسمح له بالتفوق على المادة الصماء بحسن تدبيره وتقديره . والتقدير والتدبير مصدرهما العقل والإدراك وهما أقوى من الغريزة والفطرة . وإذا كان

الإنسان وهو مادة وطبيعة، يتربع على عرش السلطة بين الطبائع الأخرى فما ذلك إلا لأنه أكثر رقياً منها لكنه رقي محدود القدرة بدوره. فهو لا يستطيع أن يخلق شبيهاً له على شاكلته وطبيعته ولا تشير التوقعات إلى أنه سوف يقدر على فعل ذلك في القريب المنظور على الأقل، لذا فإنه لا يستطيع أن يكون خالقاً بل هو مخلوق متميز. فمن هو خالقه؟

إنَّ تميز الإنسان بالعقل إلى جانب الغريزة والفطرة أمر يدعو إلى التأمل. فالفطرة ساعدت على قيام المادة الصماء والمتشكلة وجعلتها تتحرك وفق قوانين ثابتة انبعثت عنها واتحدت بها. فالمغناطيس مثلاً يجذب الحديد بفطرته والنار تولد الحرارة بفطرتها والشمس تدور في فلكها والنبات يتغذى ويشب وينبت بفعل الفطرة أيضاً. والحيوان يلتمس طعامه ويدفع الأذى عن نفسه ويتزاوج بالغريزة. لكننا نعلم أن الغريزة لم تكن كافية للمحافظة على أنواع كثيرة منه فبادت وانقرضت.

أما الإنسان فقد وفق بين الفطرة والغريزة فصنع الكهرطيسية ـــ مثلاً ـــ واستخلص من نبتة واحدة صنفين فأكثر وهجن كثيراً من الحيوانات ووفق بين كثير من الطبائع المختلفة. كما أنه استطاع التغلب على الصعوبات التي اعترضت سبيله فتخطاها وتغلب عليها وأكد وجوده كنوع ثابت متفوق رغم أن العلماء يحددون وجوده بعد بلايين السنين على وجود الكون.

والفضل في هذا التفوق يرجع إلى جزء صغير في تكوينه هو العقل. والعقل هو خاصة إدراك التبعية أو العقلانية المنطقية لأفعال معينة مع أفعال أخرى واكتشاف القوانين التي تتحكم بالظواهر وإقامة تقديرات محددة على أساس معرفة هذه القوانين. فهو إذاً خاصة الحكم والتصرف وفق استدلالات مفهومة لا وفق الفطرة والغريزة أو الاستدعاءات المتزامنة. فإذا كان المخ هو العقل كما علمونا، فإن تعريفه يستوجب ربطه بالذكاء لأن العقل دون ذكاء لا يغني الإنسان عن شيء. فالحيوانات كلها تملك مخاً يستقر فيه «عقلها» وتملك «ذكاء» الاستقراء واستنتاج القوانين التي تربط بين الوقائع والأحداث، وتوحيدها والاستدلال بها على وقائع ممكنة الحدوث متماثلة في المقومات وموحدة في النتائج. ومن هنا جرى تعريف الذكاء عند الإنسان على صورة تبرز هذه الخاصة التي ينفرد بها دون سائر المخلوقات.

والذكاء في اللغة هو خاصة المعرفة والفهم. أما في الفلسفة وفي أوسع معانيه، فإنه مجموعة الخواص التي تمكن من المعرفة: الإحساس، التداعي، الذاكرة، التخيل، الإبداع، الإدراك، التمييز إلى آخر هذه الصفات كما يعرِّف الفلاسفة الوعي المميز بأنه مجموعة الظواهر التي تتعلق بالفعل والحركة.

فالعقل إذاً نقيض الحدس والمعرفة الاستدلالية في حين أن الذكاء هو القدرة على التحقق والتنظيم والأحدية، يُرجع الحالات الصادرة الوقتية إلى الأحدية أو هوية « الأنا » الذي يعرف العالم ويعرف نفسه بفضل التمعن والتفكر. وهو في مسعاه هذا إلى الترتيب والتوحيد، ينتقل من تأمل الكائنات والأشياء إلى النظر في صفاتها المشتركة وعلاقاتها الدائمة. والأفكار العامة الناتجة عن هذا التأمل تصبح مجموعة من المواد التي يتصرف بها الفعل فيقارب بينها ويوحدها ويقارن بينها بالحصافة والتمييز.

ومن هنا نخلص إلى القول إن العلم الذي يرق من الوقائع الخاصة إلى قوانين أكثر عمومية ليس إلا هذا المسعى الذي يبذله العقل نحو الأحدية البسيطة الراسخة والمفهومة.

وبفضل هذا العقل وروافده ومكوناته استطاع الإنسان أن يبدع وأن يوجد أشياء لم تكن موجودة من قبل على الشكل الذي أقامها عليه. فهو إذاً مبدع وخالق في حدود هذا المعنى، أي أنه قادر على أن يشكل من الموجود وجوداً جديداً على صورة جديدة.

لكنْ هناك فارقٌ هائل لا يحده العقل بين أن نخلق من الموجود شيئاً وأن نخلق من اللاموجود وجوداً. فلا يستبدن بنا الغرور ويدفعنا إلى الظن أننا نخلق حقاً. إن دورنا قاصر على التنسيق والتوفيق بين عناصر ومواد موجودة أمامنا ومن حولنا، نحولها من حال كانت عليه إلى حال جديد تصبح عليه وننسق بينها بحيث نجعلها تركيباً لشيء جديد يؤدي غرضاً جديداً.

ونحن نستخدم في كل ما نصنع ونفعل معدات وأجهزة ليست من صنعنا ولا يد لنا في إبداعها. أي أننا لم نخلق شيئاً من ذاتنا. فلا اليد من صنعنا ولا العظام ولا الأعصاب والا البشرة ولا الجهاز العضلي ولا القلب. بل إن الذكاء والعقل اللذين نسخرهما في كل ما نفعل بهذا الغرور الطفولي والتعالي الساذج ليس من فعلنا أو من صنعنا.

وليس هذا القول تأييداً لفلسفة التشكك التي تقول ما خلاصته: إذا كان الإنسان لا يملك صنع شيء من أحاسيسه فكيف يثق بما تقدمه تلك الأحاسيس.

إن الأخذ بهذا الرأي يبقى قائماً لو كانت الأجهزة في إنسان ما تختلف عنها في إنسان آخر بحيث تكون النتائج التي يستخلصها كل واحد منهما في نطاق فعل متشابه مختلفة عن بعضها بعضاً كأن يرى أحدهما شيئاً بلون أخضر يراه الآخر أبيض أو أن يرى أحدهما قزماً ما يراه الآخر عملاقاً. لكن تجانس هذه الأجهزة التي ليست من صنعنا وما تعطيه من رؤيه

واستنتاجات موحدة أو متشابهة يدل على أنها جاءت من مصدر واحد محدد ولغاية واحدة محددة وأنها صنعت بالتالي على أسس موحدة .

فمصانع السيارات مثلاً تطرح إنتاجها بأسماء مختلفة وعلامات مميزة لكنها رغم التباين الذي بينها في الأسماء والأشكال تعتمد كلها على أساس الحركة أو ما نطلق عليه اسم الديناميكية التي تعمل بمبدأ ترابط الحركة . وهذا ما يجعلنا نطلق عليها كلها اسماً عاماً فتقول هذا يملك سيارة وذاك باع سيارته أو استبدلها بأخرى . ولا ندخل في التفاصيل إلا عندما نبين المصدر ونحدد النوعية لوجود أكثر من مصنع ينتجها . لكن قولنا هذا لا يمكن أن يوحي بالشك في طبيعة الجهة المنتجة أو في طبيعة الإنتاج نفسه .

كذلك يتشابه الحال عند الإنسان مع فارق واحد هام هو وحدة الجهة المنتجة . ونحن عندما نطلق هذا الاسم على النوع فإنما نحدد الأسس البنيوية الخاصة على اختلاف الأعراق والألوان والبيئات والأقاليم والمجتمعات والمفاهيم . وهذا يدل دلالة واضحة على أن كل من يتمتع بهذه البنية والطبيعة إنما جاء من مصدر واحد موحد .

والخلاف الذي نلمسه في وجودنا لا يرجع إلى أسس الصناعة نفسها بل إلى اسم المصنع أو الصانع وهو خلاف قابل للحل إذا احتكم الأطراف للعقل والمنطق .

لكن قولنا : إن الصانع جوهر فرد يفعل ولا ينفعل أو ليس كمثله شيء يبدو أشبه بالأحجية التي تفتقر دائماً إلى الحل . فنحن لا نعرف في وجودنا جوهراً فرداً يفعل ولا ينفعل . لذلك فإن تحديدنا لطبيعة الصانع الواجد على هذا النحو لا يعطينا صورة محددة الأبعاد والمعالم . وقولنا ليس كمثله شيء قول يجسد الغموض نفسه إذ كيف نتصور ما لا يمكن تصوره والتصور يأتي عادة نتيجة للمقارنة والتشبيه .

إلا أن الجواب برغم ذلك سهل ومقنع . فنحن نملك أجهزة صنعت بدقة وإحكام معجزين لتتفق واحتياجاتنا الحياتية وحسب . فلو أن أعيننا كانت تملك قوة إبصار مجهرية بحيث تمكننا من رؤية ملايين الجسيمات والجراثيم السابحة حولنا ، نرى الملايين منها تدخل في أفواهنا وأنوفنا وتخرج مع زفيرنا وتحيط برؤوسنا وأيدينا وطعامنا وشرابنا ، لكانت حياتنا جحيماً لا يطاق . ولو كانت آذاننا تسمع دبيب النملة على الأرض كوقع حافر جواد يمشي على مقربة منا لكانت راحتنا مستحيلة . ولو كنا نتحسس رحيق الشجرة في أغصانها وحركة التنفس في الزهرة التي نشمها ورعشة الموت أو الذبول في الثمرة التي نأكلها لكانت حياتنا جحيماً مطلقاً ، فلا راحة ولا استقرار ولا هدوء ولا سعادة مع مثل هذه الحواس .

من هنا نستنتج أن الصانع كان آية في التعقل والإبداع إذ حدد طاقاتنا على النحو المودع فينا بحيث تخدم وجودنا ولا تقض مضاجعنا . إنها نتيجة دراسة دقيقة وموضوعية غاية في الوضوح والصحة . وأن تكون طاقات عقولنا سليمة ومحدودة هي الأخرى ضمن نطاق معين دليل تبعي على أنها لو كانت مختلفة عن ذلك لعشنا في دوامة لا تبقي ولا تذر .

وشعورنا بقصور هذه الطاقات يكمن في طموحاتنا التي تدفعنا دائماً إلى طلب المزيد . فالقوي من بني الإنسان يعمل على توفير قوة أكبر والغني على ثراء أوفر والمتسلط على سلطة أوسع وهكذا . وهذه كلها من الأسباب المدمرة التي تدفع الإنسان إلى القضاء على وجوده . والأمثلة على صحة هذا الرأي أكثر من أن تحصى في حياتنا العامة ، وتصفّح سريع لتاريخ البشرية ينفي كل شك وشبهة .

لكننا بصدد دراسة عصيان أو تمرد وقع في هذا الوجود وأجمعت الأديان على صحة وقوعه بشكل أو بآخر . والخالق هو العنصر أو الطرف الرئيسي والهام فيه . ولقد عجز العلم عن تحديد كنهه في حين جعله الفلاسفة والمفكرون العقل المطلق والكمال المطلق والحكمة المطلقة والقدرة المطلقة أي أنهم وضعوه وراء البعد اللانهائي لكل ما يخطر على الفكر والبال من صفات حميدة وبذلك نفوا عنه الظلم . والظلم نقيصة تنجم عن التأثر بنزعات ودوافع لا تتفق وأبسط قواعد العدل والحكمة .

ومن كان كاملاً كمالاً مطلقاً لا ينقصه العلم ولا تخونه القدرة . هذا هو الله إذاً بعيداً عن كل المفاهيم الدينية لأن تعريفه الذي أوردته في هذا السياق جاء من المراجع الغربية البعيدة عن فكرنا الديني . ومن كان يتمتع بكل هذه الصفات الخارقة يستحق حكماً وضرورة أن يُحترم وأن يبجل .

لكن تمرد إبليس وعصيان آدم يهزان هذه الصورة إذا ما جاءا حقاً وصدقاً على النمط الذي ترده الألسن ويؤكده الفقهاء .

لننتقل الآن إلى العنصر الثاني في هذه الحادثة العجيبة وأعني الملائكة وإبليس بصفته واحداً منهم أو من مجتمعهم .

إبليس والملائكة

إن دراسة طبيعة هذا الطرف وسلوكياته ضرورة ملحة لتحديد معالم الواقعة . لكننا وللأسف لا نجد مرجعاً « علمياً » يبحث في الملائكة لأن العلم كما أسلفت لا يهتم إلا بما هو محسوس وملموس والملائكة ليسوا على شيء من ذلك .

المرجع الوحيد الذي نجد أنفسنا مرغمين على استقاء المعلومات منه هو المصنفات الدينية . وأصحاب هذه المصنفات ، سواء في الهند والصين وفارس أو في البلدان التي يدين سكانها بالديانات التي عُرِّفت « بالسماوية » ، لا يعترفون بوجود الملائكة وحسب بل ويصنفونهم إلى فئات ودرجات ويعطون لبعضهم أسماء مميزة بل ويصورونهم ويسهبون في تعداد صفاتهم ووصف ملابسهم .

فالديانة المسيحية تعرِّف « الملاك » بأنه خلق فوق البشر ذو سمو في المدارك ، أعطاه الخالق حق الاختيار فتقيد بالفضيلة ونأى عن الرذيلة باستثناء عدد قليل جداً آثر الشر فطرد من السماء ليبوء بعقاب أزلي .

أما المسلمون فإنهم يعرفون الملائكة بأنهم خلق نوراني ــ بلا جسد ــ لا يعصون لله أمراً ويفعلون ما يؤمرون ، لا يعرفون إلا ما عرفهم الله به .

وإبليس هذا ينفرد العرف الإسلامي به وحده وليس في العلم ولا في المعتقدات الأخرى ذكر لهذا الاسم . فالمسيح مثلاً ركب على شيطان ليحمله إلى قمة جبل عالية ليرى العالم كله ، شيطان لا إبليس .

وتستوقف العقيدة الإسلامية انتباهنا بإيراد اسم إبليس في مواضع معدودة ومحدودة في الكتاب المقدس ثم بتعريفه باسم الشيطان في كل المواضع الأخرى على كثرتها وبذلك باتت تلتقي مع العقائد التي سبقتها والتي اقتصرت على تعريف الشر باسم الشيطان .

والعقيدة الإسلامية التي انفردت بذكر اسم ابليس جمعت بينه وبين آدم في كل نص ورد ذكر أحدهما فيه باستثناء آية واحدة .

والعلم كذلك لا يعترف بآدم كأول إنسان على الأرض لكن الأديان والعقائد الأخرى تقر له هذه الصفة حتى إننا في شبه جزيرة سيرلنكا الآسيوية نجد جبلاً اسمه جبل آدم .

والعلم لا يعترف بوجوده على النحو الذي صورته العقائد وبالتالي لا يعترف بقصة عصيانه ولا بالصورة التي رسمتها له العقائد في أذهان البشر .

ومن هنا نرى أننا نبحث في موضوع شائك تطرق العلم إلى الطرفين الرئيسيين فيه : الواجد والوجود دون أن يحدد أبعاد الجانب الأول بينما اتخذه الباحثون والمفكرون محوراً لاستدلالاتهم . أما العنصر الثاني الذي قام بالعصيان فقد أنكره العلم وأقرته المعتقدات في حين اختلف العلم مع العقائد في العنصر الثالث والأخير . لذلك لا بدّ لنا من اللجوء إلى ما ورد في العقائد الدينية كتعريف لهما .

هذا عن العناصر أي الأطراف الرئيسية في حكاية التمرد أما المكان فإنه الوجود دون تحديد الموقع لأن هذه الكلمة تعني كل ما هو كائن من أرض ومن سماء .

ولقد وصف بعضهم الوجود بأنه نقيض العدم لكنني أرى أن نقيض الوجود هو اللاوجود أما العدم فإنه وجود نعجز عن تحديد كنهه لكنه موجود . ونحن نقول إن فلاناً خلق نفسه من العدم أو إنه معدم تماماً ونعني أنه بدأ من الصفر أو انتهى إليه . لكننا لا نقصد بالطبع الصفر المطلق ولا الصفر الذي حددناه على ميازين الحرارة بل نعني أنه استطاع أن يكوّن ذاته دون مقومات منظورة أو أنه عاد محروماً من كل مقومات القدرة . لكننا في كلا الحالين لا ننفي وجود الشخص موضوع الحديث لأن الصفر الذي نقصده هو الصفر المجازي الذي لا يجد عنده المعدم أي مقومات لتكوين حالة جديدة .

فالوجود إذاً هو ذلك الشيء الذي نلمسه ونراه ونحس به أما العدم فهو ذلك الحيز الذي لا يدخل ضمن حدود حواسنا إلا إذا خرج من مكمنه إلى دائرة المحسوس التي نؤمن بها . أي أن الطائرة التي نراها محلقة تكون قبل أن نراها في حيز العدم وتنتهي إليه عندما تغيب عن أبصارنا .

والجن والشياطين الذين تحدثنا عنهم والذين ملأنا أقاصيصنا الشعبية بصورهم المختلفة ليسوا في الحقيقة إلا مخلوقات في حيز العدم أي في حيز عدم إدراكنا لوجودهم بوسائلنا الحسية . وكل الذين تحدثوا عن الجن والشياطين ورؤيتهم لهم أعطوهم تجسيداً حسياً خاضعاً للوصف والتحديد . لكن الخلفية التي تشغل جانباً من تفكيرنا من جهة وتكرار ذكرهم على

مر العصور والدهور من جهة أخرى يؤكدان وجودهم حتى إنه لا تخلو لغة من لغات الأرض من كلمة يعرّف بها الشيطان .

ولقد أعطى خيال الإنسان صوراً شتى للجن والشياطين وتداول سيرتهم في مجالسه على أشكال مختلفة تؤكد كلها وجودهم بصورة غير حسيّة . ووادي عبقر ما زال موجوداً في مكانه في الجزيرة العربية لكننا لم نسمع في عصرنا الحديث بواقعة واحدة تشهد بما ذهب إليه العرب من قبل وأكدوه .

وجول فيرن[1] على سبيل المثال ، عندما تخيل رحلته إلى القمر قبل أن يوفق الإنسان في تحقيق هذا الهدف بسنوات طويلة كانت قصته خيالية . ولما تم للإنسان الوصول إلى القمر والتعرف على شعاع الليزر وأشعة بيتا وجاما وعشرات المكتشفات الأخرى ، كان فعله ذاك إخراج تلك الأشياء من « عدمها » إلى الوجود ، أي أنها كانت موجودة من قبل لكننا كنا نجهل وجودها لأنها كانت فوق قدرة طاقاتنا الحسية على الإدراك حينذاك .

ولنأخذ الإلكترون على سبيل المثال . نحن نعرف أن ذرة الكربون تحوي في وسطها نواة بها ستة بروتونات وستة نيوترونات وأن ستة إلكترونات تدور حولها في مدارين : اثنين وأربعة « ٢ ـــ ٤ » . ونعرف أن النيوترون جسيم غير مكهرب أثقل من الإلكترون بـ : « ١٨٣٩ » مرة وأن البروتون يحمل شحنة كهربائية موجبة وأنه أثقل من الإلكترون بـ : « ١٨٣٦ » مرة . أي أننا إذا فرضنا جدلاً أن وزن الإلكترون يساوي « ١ » فإن وزن البروتون يساوي « ١٨٣٦ » إلكتروناً ، ووزن النيوترون يساوي وزن البروتون زائد « ٠٠٠٣ر٠ » أو « ١٨٣٩ » إلكتروناً . بهذا يكون وزن هذا الكهيرب ـــ الإلكترون ـــ كما نعرف جزء من ألف مليون مليون مليون مليون جزء من الغرام نكتبه بلغتنا الرقمية صفراً وفاصلة ثم ستة وعشرين صفراً وبعدها واحد .

وعلى الرغم من أن الإلكترون أخف من البروتون بألف وثمانمائة وستة وثلاثين مرة ، إلا أنه يحمل شحنة كهربية سالبة متساوية تماماً والشحنة الموجبة التي يحملها البروتون وبذلك تبدو لنا المادة متعادلة أي غير مكهربة ، رغم أن بنيتها تتكون من جزيئات مكهربة . ألم يكن هذا كله عدماً قبل أن نعرفه .

---

(١) جول فيرن Verne كاتب فرنسي ١٨٢٨ ـــ ١٩٠٥ أبدع الرواية الحدسية أو التوقعية ومن أعماله « خمسة أسابيع في منطاد » ١٨٦٣ « رحلة إلى مركز الأرض » ١٨٦٤ ، « من الأرض إلى القمر » ١٨٦٥ ، « عشرون ألف ميل في قاع البحار » ١٨٧٠ ، « حول العالم خلال ثمانين يوماً » ١٨٧٣ ، الخ ...

هذا ما عرفناه اليوم بفضل المشتغلين في العلم والمعرفة. ترى أكان هذا غير موجود أم كان في العدم؟ ولم يقنع الإنسان بهذه المعرفة بل صنع معجلات ذرية وقدّر ما يلزم لتخليق البروتون، وهي طاقة أكبر من تلك التي يتطلبها تجسيد الإلكترون بـ «١٨٣٦» مرة بتطبيق المعادلة القائلة إنَّ الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء بالسانتيمتر في الثانية الواحدة. وهكذا أخرج الإنسان من العدم جسيماً يعيش جزءاً من ملايين الأجزاء من الثانية الواحدة هي ميلاده وشبابه وكهولته وموته، وجعله موجوداً بعد أن كان في العدم. وهذه واحدة من مساعي الإنسان لتدمير وجوده يحاول أن يسخرها في خدمته على حساب البيئة والوجود. أي أن الإنسان المتطور يطبق بدقة وإخلاص سخرية الكاتب الإيرلندي جورج برنارد شو ١٨٥٦ ــ ١٩٥٠ الذي شبه سلوك الإنسان المتحضر بطريق متعرجة ذات حفر وتضاريس كثيرة تقطعها كل يوم ألوف السيارات ووسائل النقل الأخرى فتؤدي تلك الحركة الدائبة على تلك الطريق على ما هي عليه من إهمال وتضاريس إلى وقوع حوادث مؤسفة كثيرة، الأمر الذي حدا بالإنسان إلى بناء المشافي ومراكز الإغاثة على جنباتها بدلاً من أن يحسم الأمر بمعالجة العلة الأساسية بتعبيد الطريق نفسها.

هذا هو الإنسان المتطور. أما الإنسان المتخلف فإنه يجسد الخيال على صور يخدّر بها طاقاته ويبلد حركتها وهذا هو حال شريحة كبيرة من أتباع مختلف الديانات الذين يسخرون عقولهم لخدمة مفاهيمهم المحدودة.

نستنتج مما تقدم أن العدم فيه وجود لكنه وجود خارج عن نطاق حسنا، نجهل ما تتكدس فيه من موجودات لم تظهر بعد لحواسنا. وأقرب مثال على ذلك شخصان يحدقان في أفق واحد أحدهما بعينيه المجردتين والثاني بمنظار مقرب. إذا سألناهما وصف ما يتبدى لهما صدق كل منهما في قوله وإن اختلفت معطياتهما وتباينت في التفاصيل. وقد نكذب أحدهما ونصدق الآخر إذا كنا نجهل سبب الاختلاف فيما يقولانه.

فالعدم إذاً وجود. ولكن ما هي طبيعة هذا الوجود؟ إنها مادية قولاً وفصلاً. ولكن، هل نستطيع التدليل على صحة هذا القول الفصل؟ هل يمكننا تحديد مادة الضوء؟ الرائحة؟ الصوت؟ الهواء؟ أهي كلها مادة؟ أي مادة هي؟

لنستعرض ما يقوله العلماء عن الضوء. يقولون إن الإنسان كان يعتقد أن الضوء هو ما تراه العين وأنه السبب في حاسة الإبصار. وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى القرن السابع عشر على الأقل عندما أثبتت الأبحاث أنه اعتقاد خاطئ. فالضوء أنواع كثيرة لا نراها كلها

رغم أنها موجودة . ويرجع الفضل في تصحيح هذا الخطأ إلى إسحق نيوتن[٢] الذي بدأ تجاربه على أشعة الشمس عام ١٦٥١ .

ولقد قرأنا جميعاً قصة تجربته الأولى وظهور مجموعة ألوان الطيف . فقد ثبت لنيوتن أن الزجاج لا يغير الضوء الأبيض كما كان العرف سائداً من قبل بل يحوله إلى مكوناته الأساسية وحسب ، ودلل على ذلك بأننا إذا فصلنا على سبيل التجربة الضوء الأحمر النقي من الألوان الناتجة عن الموشور الزجاجي ومررناه خلال موشور آخر فإنه لا يتغير .

وإذاً ، لا تستطيع العين أن تميز بين ألوان الضوء البسيط والألوان الناتجة عن الخليط الضوئي . أي أننا إذا مزجنا الأخضر بالبنفسجي حصلنا على الأزرق وهو اللون الذي نراه ، والأحمر البسيط بالأخضر حصلنا على الأصفر وهو وحده الذي نراه ، بمعنى أن العين تستطيع رؤية اللون الناتج عن المزيج الضوئي وليس الألوان المركبة له رغم أنها تحوي مائة وثلاثين مليوناً من الخلايا الكهرضوئية التي تستقبل النور كما يؤكد العلماء .

ولسنا هنا بصدد دراسة أبحاث نيوتن لكننا نستشهد بها لندلل على أن لكل لون من ألوان الطيف « سُمْكاً » أُطلق عليه اسم موجة ورُمز إليه بحرف Y وأن لكل موجة طولاً وأن أطوال موجات الضوء قصيرة جداً جداً عبر عنها نيوتن بوحدة أطلق عليها اسم الميلي ميكرون وهو يساوي جزءاً من مليون جزء من الميليمتر « م Y » . وانطلاقاً من هذه الدلالة وجد نيوتن أن طول موجة اللون الواقع على الحد الفاصل بين منطقتي اللون الأزرق والأخضر في طيف الشمس يساوي ٤٩٢ ميلي ميكرون م Y والزرقاء أربعمائة « ٤٠٠ م Y » الخ . .

وفي تلك الأثناء استطاع عالم آخر اسمه أولاوس رويمر Olaüs Roemer دانماركي الأصل ١٦٤٤ ــ ١٧١٠م أن يحدد سرعة الضوء بحوالي ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية ثم تبين أن الرقم الأكثر دقة هو « ٢٩٩٧٧٦ » كيلو متراً في الثانية . أي أن ضوء الشمس

---

(٢) Isaac Newton فيزيكي ورياضي وفلكي إنجليزي ١٦٤٢ ــ ١٧٢٧ أعطى عام ١٦٦٩ نظرية تركيب الضوء الأبيض الذي كان يعتقد أنه مؤلف من جسيمات . وكتابه « المبادئ للفلسفة الطبيعية » سيظل قاعدة لكل التطورات التي يمر بها هذا العلم . صدر الكتاب عام ١٦٨٧ وقد اعتمد فيه على مبدأ القصور الذاتي ونسبية السرعة وتساوي الفعل ورد الفعل . واكتشف نظام الجاذبية بتعريف الجاذبية الأرضية وقوة الجذب بين الأجرام السماوية كما اخترع التلسكوب عام ١٦٧١ . وحكاية « تفاحة نيوتن » الشائعة حول نقطة البداية في بحثه في الجاذبية معروفة . ولقد شارك لايبنتز في اكتشاف أسس الحساب التفاضلي مما جعله يعود إلى إحياء قوانين كيبلر Kepler الفلكي الألماني ١٥٧١ ــ ١٦٣٠ .

يستغرق ثماني دقائق تقريباً ليصل إلى الأرض على أساس أن بعد الشمس عن الأرض يبلغ حوالي « ١٤٤ » مليون كيلو متر تقريباً .

لكن هذا التعريف العلمي كان بحاجة إلى بحوث أكثر شمولاً لأن الضوء إذا كان مسبب الرؤية عند الإنسان لوجب أن نبقى في ظلام لمدة ثماني دقائق كلما أسدلنا جفوننا على أعيننا ثم فتحناها وهي المدة اللازمة لوصول الضوء من الشمس إلى الأرض، في حين أننا لا نكاد نفتح أعيننا حتى نرى كل شيء وإن لم تكن الرؤية الأولية واضحة تماماً . فهل نستنتج من ذلك أن الضوء يبقى على الأرض وحولها ما دامت الشمس مشرقة أم أن في العين جهازاً يتغلب على هذه العقبة . وإذا كان الضوء يعمّ على الأرض فهل يعني ذلك أن الظلام يجب أن يعم الجانب الذي نعيش عليه من الأرض بعد ثماني دقائق على غياب الشمس أم أن جانباً من الضوء يبقى شارداً يضيء إلى حد ما حتى يستنفد .

ولقد توصل العلماء بعد ذلك إلى أن للضوء تردداً إضافة إلى طول موجته وسرعتها وتوصلوا إلى معادلة تقول: إذا قسمنا سرعة الضوء على سرعة موجته حصلنا على عدد التغيرات التي تحدث في شعاع الضوء في الثانية الواحدة . وهذه التغيرات هي التردد . وكنتيجة لهذه المعادلة ، فإن تردد الضوء الأصفر على سبيل المثال وطولُ موجته سبعمائة ميلي ميكرون ، يصل إلى نصف مليون دورة في الثانية الواحدة .

بذلك استطاع العلماء أن يحددوا ألوان الضوء وموجاته وتردداته وسرعته . لكنهم ما استطاعوا أن يحددوا كنه الضوء نفسه .

لقد أعطونا تفسيرات كثيرة لكنها غير كافية ولا مطمئنة . فالضوء حتى هذه اللحظة هو شكل الطاقة المشعة التي يدركها جهاز الإبصار عند الإنسان . ولقد علل العلماء ذلك بأن كل جسم يملك درجة حرارة أعلى من درجة حرارة الوسط الذي يوجد فيه ، وأن الأجسام تصدر إشعاعاً يتزايد بزيادة حرارة الجسم نفسه بالنسبة للوسط المحيط به . وهذا الإشعاع يكون معتماً في وسطٍ حرارته أقل من خمسمائة درجة وحرارياً بحتاً فيه . فإذا ما زادت حرارته عن هذه الدرجة ، أخذ يشع ضوءاً يزداد قوة بازدياد درجة الحرارة . والضوء ينتشر في الفراغ وفي الأجسام بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية والظاهرة الضوئية لا يمكن أن تبدو لأعيننا إلا إذا كان طول موجتها على درجة كافية من القصر . لذا فإننا لا نرى الأشعة الحمراء والأشعة فوق البنفسجية .

فالضوء إذاً ناتج عن تفاعل مادي لكنه ليس مادة إلا إذا اعتبرنا أن ما يتحصل عن المادة مادة كذلك. ولو كان الأمر كذلك لوجب أن نتساءل عن طبيعة المادة التي تشكل كل لون من ألوان الطيف ولكانت كلمة «أشعة» التي استعملوها وعرفوا بها الضوء فوق البنفسجي وتحت الأحمر، وألفا وبيتا وجاما وغيرها أسماءً لا ضرورة لها ما دام الضوء أشعة والأشعة ضوء. وإذا كان كل ما يشع ضوءاً فلماذا الأشعة غير مرئية في درجة حرارة أقل من «٥٠٠» مع أن المادة التي تفرزها موجودة لا تتوقف عن بثها وإصدارها.

ونحن نعلم أن لا رائحة دون هواء. والناس جميعاً، العامة منهم والخاصة يقولون إن الهواء يحمل إلينا رائحة كذا. فالهواء إذاً وسيط يحمل شيئاً ذا رائحة. ونقول إن الرائحة تفاعل مادي بين جزيئات مختلفة. مجرد تفسير للظاهرة إذ كيف نستطيع التمييز بين الرائحة الذكية والرائحة الكريهة. كيف نقول إن الماء لا لون ولا رائحة ولا طعم وإنه حصيلة امتزاج ذرات من غازي الأوكسجين والهيدروجين بنسب معينة حددناها بدقة.

لقد عرف العلماء الرائحة بأنها الإحساس الخاص أو التأثير الخاص الذي يحدثه ما يفوح من الأجسام على جهاز الشم عند الإنسان. فياله من تفسير واضح بيّن يبدد الغموض الذي ظل الإنسان يتخبط فيه دهوراً طويلة! أيعني هذا أنه لولا جهاز الشم عند الإنسان لما كانت هناك رائحة بالنسبة للإنسان على الأقل؟ وجهاز الشم هذا يتحسس بشعيرات «عاقلة» ترسل إخطارات إلى «مركز التعريف» الخاص في «القيادة العامة» لجسم الإنسان. فيصدر المركز قراره ويعيده إلى «مركز العمليات» الذي يقرر بدوره السلوك الواجب اتخاذه تجاه هذا التحسس. لكن هناك تفاعلات بين جزيئات أجسام لا نشمها فنقول: إنها عديمة الرائحة. فهل يعني هذا أنها عديمة التفاعل؟

والهواء نفسه، كيف عرّفوه؟ إنه السائل الغازي الذي يشكل الفضاء وهو خليط من غازات تشكل طبقة حول الأرض اسمها الفضاء. ولهذا المزيج تكوين ثابت ذو خواص فيزيائية محددة وهو عديم الرائحة والطعم ناقل سيئ للحرارة والكهرباء إلا إذا كان رطباً أو مشبعاً بالأيونات.

فهلا أطلعتني أيها القارئ على مقدار المعرفة التي تحصلت لديك بفضل هذا التعريف؟ هل عرفت أنواع المادة التي تفاعلت فشكلت هذا الهواء ومكوناته؟ وهل نستطيع أن نتعاون معاً لتكوين هواء خاص لكل منا استناداً إلى هذه المعرفة؟

ما استطاع العلماء تحديد مصدر ذلك السائل الغازي وكيف كان والسبب والأسباب التي تحوله إلى زوابع تقتلع كل شيء يعترض طريقها ولن يستطيعوا. وما استطاعوا أن يحددوا السبب الذي من أجله كانت نسبة الأوكسجين في هذا الهواء تقارب خمس مكوناته في حين تصل نسبة غازات أخرى إلى حد الندرة. وما استطاعوا أن يبرروا سبب استهلاك النبات للأوكسجين ليلاً و «إعادته» نهاراً إلا بالقول إن ضوء الشمس هو الذي يزوده بكامل احتياجه. بعد هذا كله، لا شك أنك ستوافقني على العودة من جديد إلى نقطة البداية، إلى الوجود الذي كان والذي جئنا نحاول إيجاد تفسيرات لكينونته بدافع الفضول والتطلع اللذين يؤديان بنا إلى «المعرفة».

فإذا لبثنا على إصرارنا على اعتبار الوجود كله مادة فلا بدّ والحالة هذه من أن تكون هناك مادتان عرفنا واحدة منهما وقنعنا بالتفاسير التي قدمناها لأنفسنا عنها إشباعاً لفضولنا وبالنتائج التي تحصلت لدينا. أما المادة الثانية فإننا لا نزال نجهل كنهها. وليست في إقرارنا بالجهل ما يعيب لأن نظرة سريعة إلى الوراء تجعلنا نزدهي بما حققناه من معرفة خلال حقبة قصيرة من عمر الزمن. لكن ما عرفناه كان من قبل عدماً.

وأقول بنوعين من المادة وأعني بالثاني ذاك الذي تحصل عنه النوع الأول الذي عرفناه حتى الآن.

وإذا كان الوجود محصوراً بما نرى ونلمس لكان ما حصلنا عليه من معلومات كافياً لإشباع فضولنا. لكن الإنسان المتطور بات يرفض أن يعيش حياة هامشية لقناعته الضمنية بأن الوجود شيء لا حدود له وأن معرفته المتحصلة حتى الآن لا تصل إلى عُشر معشار جزء من الكل.

ولو استعرضنا خلاصة فكر الإنسان منذ أقدم العصور لوجدناه قد عبد الشمس حقبة طويلة كما فعل المصريون القدماء بدلالة الأثر الموجود في «تل العمارنة» من اخناتون عام ١٣٧٠ ق. م. بل إن العقيدة المسيحية مزجت بين العين والشمس أو الضوء كما يظهر من نحت مقام على مدخل كنيسة في مدينة «بوشكين» الروسية يمثل «العين التي تبصر كل شيء». ولقد أورد العالم الروسي فافيلوف صورة هذا النحت.

ولما كان الإنسان عاجزاً عن إثبات الحقائق المحسوسة بطريقة العلم التجريبي فقد عمد إلى التأمل وتحليل الأعراض بما يتفق وقدرته على التعمق والاستنتاج. فالعلم التجريبي ما استطاع حتى الآن أن يصل إلى ما بلغته الفلسفة من التبصر. وبنتيجة هذا التأمل، اضطر الفكر الإنساني أن يعيد الوجود إلى الواجد.

من كل ما سبق، نخرج بفكرةٍ واضحة إلى حد ما عن الخالق وعن الوجود الذي وقعت فيه أحداث هذا التمرد. وسنركز البحث في طبيعة الطرف الرئيسي الثاني وأعني الملائكة وإبليس بوصفه واحداً منهم وإن لم يكن لدينا أي مرجع يحدثنا عنهم بلغة علمية أو فكرية. فهل ترانا ننكر وجودهم لأننا لا نراهم ولا نلمسهم أم نعتبرهم موجودين في حيز العدم.

ليس لإبليس ذكر في الأديان التي سبقت الإسلام ولم يأت ذكره في المرجع الإسلامي المقدس إلا في خمسة مواضع مقروناً بآدم وبالخلق الأول في حين استعيض عنه باسم الشيطان مفرداً وجمعاً في أكثر من ثمانية وسبعين موضعاً.

ويرى الغربيون أن كلمة إبليس هذه تأتي محرفة من اليونانية القديمة «ديابولوس»، عُرّبت كما حوّرت إلى اللغة اللاتينية ومشتقاتها بألفاظ متقاربة في الجرس مختلفة في الأحرف والنطق.

ويرجع اللغويون العرب كلمة إبليس إلى فعل «بَلَس» أي خدع وغرّر رغم ما في هذا الاشتقاق من ضعف من حيث الثلاثي ذي الأحرف المفتوحة لأن اللغة العربية ليس فيها اسم فعل أو فاعل أو مفعول يبدأ بحرف الألف المكسورة مشتقاً من ثلاثي لا تبدأ فاؤه بحرف ألِف. ولو كان من أفعل التفضيل لوجب أن يكون «أَبْلَس». لكننا لن نتوقف عند هذه النقطة لأنها لا تدخل في نطاق بحثنا. أما كلمة شيطان فيقولون إنها من اللغة العبرية تلفظ «هاشاطان» وأنها عُرّبت واستعملت في اللغة العربية كما وردت في الأديان الأخرى بأسماء مختلفة تتفق في المعنى وتختلف في النطق.

والمرجع الوحيد الذي يمكننا أن نستقي منه بعض المعلومات عن إبليس هو الدين الإسلامي بوصفه الدين الأوحد الذي جاء ذكره في كتابه المقدس.

ولعل من الأفضل أن نبدأ بإلقاء نظرة سريعة على مفهوم الملائكة في الأديان الأخرى خصوصاً وأن الدين الإسلامي لم يأت على ذكره بشكل مفصل يطلعنا على حقيقة هذه المخلوقات وطبيعتهم بل اكتفى بتعريفهم بالأجسام النورانية التي لا تعصي لله أمراً وتفعل ما يأمرها به. فالملائكة في الدين الإسلامي هم الذين خلقوا من نور ليفعلوا ما يؤمرون وليطيعوا الله طاعة مطلقة.

أما الأديان فقد قسمت الملائكة إلى ثلاث فئات رئيسية تضم كل منها ثلاث درجات. فالمسيحيون يرون أن الملائكة منحوا حق الاختيار بين الخير والشر فآثروا الأول على

الثاني وتقيدوا بالخير وحده باستثناء الشيطان وزمرته الذي تمرد على أمر الله وقصر همه ووجوده على فعل الشر . فالشيطان وزمرته ملائكة لكنهم شذوا باختيار الشر على الخير .

وأرقى أنواع الملائكة عندهم هم الساروفيم أو السيرافان وهم أجمل الملائكة شكلاً وأرقاهم مقاماً يليهم الأبرياء « شيروبان » وهي تسمية مشتقة من العبرية « شيروبيم » ثم الآرومات أو المتفضلون .

وتضم الفئة الثانية المهيمنين والأطهار والجبارين أو الأسياد . أما الفئة الثالثة فتضم الأمراء أي أصحاب المقامات والرؤساء ثم الملائكة العاديين .

هذا هو تعريف الملائكة في العهد القديم أقره كذلك المسيحيون لكن العرف الإسلامي لم يذهب إلى هذا المدى في التصنيف باستثناء تنويه عابر في آية واحدة لا يصح في رأيي أن تفسر على هذا الشكل لكنه أكد أن الجن كانوا في عداد الملائكة ولولا عصيان زعيمهم وتمرده لحافظوا على كيانهم ومكانتهم السامية .

لكن « المجتهدين » من المفكرين المسلمين لم يتركوا الأمر عند هذا الحد بل خاضوا فيه وأطلقوا العنان لخيالهم فجسدوهم وصوروهم وصنفوهم حتى لنقول إنهم ضاهوا سواهم أو تفوقوا عليهم في هذا المضمار .

فالقزويني مثلاً في كتابه « عجائب المخلوقات » أفرد صفحات طويلة للبحث في موضوع الملائكة وأشكالهم وألبستهم ووظائفهم ومهامهم بطريقة ساذجة تحمل القارئ إلى أبعد حدود الخيال والتصنيف .

قال القزويني الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي إن الملائكة خلقوا من جوهر بسيط وإنهم ذوو حياة ونظر وعقل وإن الاختلاف بينهم وبين الجن والشياطين كالاختلاف بين الأنواع . فالملائكة جواهر مقدسة عن طلب الشهوة وكدورة الغضب لا يعصون لله أمراً ويفعلون ما يؤمرون ، طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس وأنسهم بذكر الله وفرحهم بعبادته ، خلقوا على صور مختلفة وأقدار متفاوتة لإصلاح مصنوعاته وإسكان سماواته . ويورد حديثاً عن النبي ﷺ يقول فيه : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها قدر شبر إلا فيه ملك راكع أو ساجد !! » .

ثم ينتقل إلا الأصناف فيقول إن صاحب الشرع قد أُعلم ببعضهم واهتدى العقل إلى بعضهم حسب وقوع الحوادث حتى قيل : ما من ذرة من ذرات العالم إلا وقد وُكّل بها

ملك أو ملائكة وما من قطرة إلا ومعها ملك ينزل بها من السحاب ويدعها في المكان الذي قدره الله تعالى !

ويضيف : هذا حال الذرات والقطرات فما ظنك بالأفلاك والكواكب والهواء والغيوم والرياح والأمطار والجبال والقفار والبحار والعيون والأنهار والمعادن والنبات والحيوان ... فبالملائكة صلاح العالم .

ويقسم القزويني الملائكة إلى «حملة العرش» وهم أعز الملائكة وأكرمهم على الله فمنهم من هو على صورة النسر ومنهم من هو على صورة الثور ومنهم من هو على صورة الأسد ومنهم من هو على صورة البشر !

ويشوه القزويني تفسير الآية السابعة عشرة من سورة «الحاقة» التي تقول :

﴿ والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾

فيقول إن ابن عباس روى أن حملة العرش أربعة فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين فذلك قوله تعالى :

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

فأما من كان على شكل البشر فإنه يشفع لبني آدم في أرزاقهم ومن كان على شكل الثور يشفع للبهائم في أرزاقها ومن كان على صورة النسر يشفع للطيور ومن كان على صورة الأسد يشفع للسباع .

هؤلاء هم حملة العرش بأشكالهم ومهامهم .

ومن الملائكة إسرافيل وهو مبلغ الأوامر ونافخ الأرواح في الأجساد وهو نافخ «الصور» يضع فمه على القرن وهو كهيئة البوق . ودائرة رأس البوق كعرض السماوات والأرض ! فإذا صدر إليه الأمر فنفخ ، صعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ولإسرافيل هذا أربعة أجنحة أحدها سدّ به المشرق والثاني سد به المغرب والثالث ينزل به من السماء إلى الأرض والرابع التثم به من عظمة الله تعالى . قدماه تحت الأرض السابعة ورأسه ينتهي إلى أركان قوائم العرش وبين عينيه لوح من جوهر فإذا أراد الله أن يُحدث أمراً في عباده ، أمر القلم أن يخط في اللوح ثم أدنى اللوح إلى إسرافيل فيكون بين عينيه ... وله أعوان موكلون على جميع العالم .

ومنهم جبريل وهو أمين الوحي وخازن القدس والروح الأمين وروح القدس والناموس الأكبر وطاووس الملائكة .

ومنهم ميكائيل وهو موكل بالأرزاق للأجساد والحكمة والمعرفة للنفوس، لا يعرف وصفه وعدد أجنحته إلّا الله وهو قائم على البحر المسجور في السماء السابعة. ولو أنه فتح فمه لم تكن السماوات فيه إلا كخردلة في بحر ولو أشرف على أهل السماوات والأرض لاحترقوا من نوره. وله أعوان موكلون على جميع العالم.

ومنهم عزرائيل وهو مسكن الحركات ومفرق الأرواح من الأجساد وهو في السماء الدنيا خلق الله رجليه في تخوم الأرض ورأسه في السماء العليا ووجهه مقابل اللوح المحفوظ وله أعوان بعدد من يموت والخلق كلهم بين عينيه.

ومنهم الكروبيون وهم العاكفون في حظيرة القدس لا التفات لهم إلى غير الله لاستغراقهم بجمال حضرته الربوبية.

ومنهم ملائكة سبع سماوات مداومون على التسبيح والتهليل في القيام والقعود والركوع والسجود، يسبحون الليل والنهار لا يفترون حتى تقوم الساعة. فإذا قامت يقولون سبحانك عبدناك حق عبادتك.

ومنهم الحفظة وهم الكرام الكاتبون وهم على زعم ابن جريج ملكان موكلان بابن آدم أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. وقيل بل هم أربعة اثنان بالليل واثنان بالنهار وخامس لا يفارق ليلاً ولا نهاراً.

ومنهم المعقبات الذين ينزلون بالبركات ويصعدون بأرواح بني آدم وأعمالهم بالليل والنهار.

ومنهم منكر ونكير وهما ملكان فظان غليظان يسألان في القبر كل واحد ميت عن ربه ودينه.

ومنهم السياحون وهم صنف من الملائكة يحبون مجالس الذكر.

ومنهم هاروت وماروت وهما ملكان معذبان ببابل.

ومنهم الملائكة الموكلون بالكائنات لإصلاحها ودفع الفساد عنها.

هذا عن أنواع الملائكة الذين تعج بهم السماوات وقد صنفهم القزويني في كتابه تصنيف العارف المطلع. أما عن «صورهم وملابسهم وألوانهم» فإنني أورد فيما يلي ملخصاً بلغة صاحب الرواية وعلى مسؤوليته:

١ ـ الملك الذي يقوم صفاً والملائكة صفاً ويسمى الروح، عظيم جداً ما يعرف كبر بدنه إلا الذي خلقه، أبيض اللون يميل إلى الحمرة وملبوسه أحمر وفوق الأحمر نمتانه وتاج وردي وخارج يديه منها. وسرواله أخضر وليس لرجليه نعل بل حاف. وله جناحان إلى أصل ساقه أطرافهما وكل واحد منهما به من الألوان أحمر وأصفر وأخضر ووردي وعلى رأسه عمامة عظيمة بيضاء مرصعة بالذهب وبوسط العمامة من أعلى كتابة بالسواد ليس يعرفها إلا الذي صورها وله أيضاً غرزة من قفاه وله قصيبتا شعر أسود كالحبر وفي أطراف أجنحته نقص شيئاً يسيراً عنها. وزيق نمتانته من الذهب وبرأس كل قصيبة من تحت أذنه كالعين مكتوبة من الذهب وله عينان وجناحان سود.

٢ ـ إسرافيل لونه كلون الملك الذي يقوم صفاً ولكنه أطول وجهاً وعيناه كعينه وملبوسه أخضر ومن فوق الأخضر نمتانه حمراء وله أربعة أجنحة التثم بالرابع منها من تحت حنكه. و «الصور» قابضه بيديه ورأسه بفمه وعمامته كما للملك الذي يقوم صفاً لكن غرزته من قبل وجهه وله قصيبة واحدة من قفاه واصلة إلى طرف جناحه الذي التثم به وبرأس القصيبة كالعين مكتوبة بالذهب وهو رافع رأسه بالصور إلى ربه.

٣ ـ وجبرائيل أبيض الوجه يميل إلى الحمرة بشيء يسير وله قصيبتان إلى أطراف أجنحته من كل جانب واحدة وهو ليس له نعال برجليه وملبوسه لا يوصف من كثرة ألوانه وحسن صنعته وعلى رأسه عمامة بيضاء كما للملك الذي يقوم صفاً ولها من الوجه طرف ومن القفا طرف وعينان وجناحان كما للملك الذي يقوم صفاً.

٤ ـ وميكائيل ولونه كلون جبرائيل ملبوسه أحمر وفوق الأحمر أزرق ونمتانه منقشة بنقش كالتاج وردي وهو متكئ وجهه على كتفه الأيسر وعيناه وجناحاه وذوائبه كما للملك الذي يقوم صفاً وعمامته كعمامته لكن غرزته من قبل وجهه. والظاهر من أجنحته أخضر ووردي وأبيض وأحمر والخفي لا يعلمه إلا الله. وعلى كتفه الأيمن تحت صليف أذنه بأصل قصيبته عين مكتوبة ومنحدرة على إبطه الأيسر بالذهب.

٥ ـ وعزرائيل لونه أبيض لكن يضرب إلى السمرة شيئاً يسيراً وملبوسه وردي مخطط بأحمر وفوق هذا الملبوس نمتانه خضراء تميل للدكونة شيئاً يسيراً وشد وسطه أحمر وعمامته كما للملك الذي يقوم صفاً لكن أصغر شيئاً يسيراً، سرواله أزرق وأجنحته جناحان على ما رأينا في الكتاب وألوانها أحمر وأصفر وأزرق وأبيض وله قصيبتان من شعر أسود اليمنى نازلة على كتفه الأيمن وخارجة من خارج جناحه إلى طرفه باعوجاج والأخرى على

الأيسر من داخل جناحه تقصر شيئاً يسيراً عنه وبيده رمح برأسه خمس أسنة وهو جالس به كجلوس القواص الذي يرمي النشاب .

٦ ــ والحفظة الكرام الكاتبون فكل واحد منهم بيده دفتر وبالأخرى قلم وهو على كتف الإنسان . وجوههم بيض تميل إلى الحمرة وملبوسهم أزرق ولكل واحد منهم قصيبة شعر من ورائه لا غير وعمامة بيضاء ونعلان برجليهما سود وأجنحتهما كل جناح لونان أعلى الجناح ذهب مخطط بشيء من السواد شيئاً يسيراً وباقي الجناح أحمر وخطط بيض في وسطه وكل منهم واضع رأس قلمه بدفتره ينتظر الحسنات والسيئات .

٧ ــ وملائكة السماوات السبع : السماء السابعة ملائكتها على صورة بني آدم ملبوسهم أصفر وفوق الأصفر كالثمتانه وردي تميل إلى الحمرة والدكنة وقصائب سود غاية السواد وجناحان كل جناح لونان أحمر أزرق وعمامة بيضاء وأجنحتها على أكتافها . وملائكة السماء السادسة على شكل الولدان ملبوسهم أحمر وردي اللون وتحت ذلك نوع آخر أزرق وقصيبة واحدة وعمامة بيضاء وله جناحان لونهما أخضر ورؤوسهما ذهب ومحازم ونعال فالمشد وردي اللون يميل إلى السواد شيئاً يسيراً والنعل أسود . وملائكة السماء الخامسة على صورة الحور العين ملبوسها جميع الألوان الحسنة ووجوهها بيض وحمر عينان وجناحان وقصيبتان كالحبر الأسود ونعالها سود وأجنحتها كل جناح ثلاثة ألوان أحمر وأزرق وذهبي ، قصيباتها طوال إلى الرجلين بل أزيد وعلى رؤوسها معاصب بيض مرصعة بالذهب . وملائكة السماء الرابعة على صورة الخيل زرق الألوان وصفتها مثل الفرس الذي أراد النهوض فرفع يده ووضع الأخرى في الأرض . وملائكة السماء الثالثة على صورة النسر وردي اللون أطراف ريشه سود لكن ورديته تميل إلى السواد شيئاً يسيراً . صدره وصدر أجنحته ذهب منقط ريشها بسواد ومنقاره ورجلاه . وملائكة السماء الثانية على صورة العقاب سوداء اللون ليس بحالكة السواد ورجلاه ومنقاره زرق وصدره ورؤوس أجنحته ذهب . أما ملائكة السماء الدنيا فعلى صورة البقر ألوانها أسود وأبيض وقرونها زرق وطرف ذيلها أسود وجميع مداركها سود والباقي أبيض .

٨ ــ حملة العرش أربعة صور ، آدمي وبقر ونسر وأسد . الآدمي ملبوسه جبة خضراء وفوق الجبة الخضراء جبة حمراء قصيرة وبسراويل من الذهب ومشد في وسطه وردي اللون وجناحاه واصلة إلى رجليه وذؤابتا شعر أسود إلى جناحيه ولجناحيه ثلاثة ألوان واحد منها أزرق وأحمر وأصفر وعمامته بيضاء مرصعة بالذهب وله ذؤابة منها من قفاه إلى

رأس جناحه وزيق جبهته الحمراء مرصع بالذهب وصورته أبيض اللون يميل إلى الحمرة ورجل من رجليه على رقبة الأسد والأخرى على ذنبه . أما البقر فهو كبقر الدنيا إلا أنه أزرق اللون تميل زرقته إلى الغبرة شيئاً يسيراً وظهره أسود ومن بين قرنيه إلى إحدى أذنيه نقطة سوداء ورقبته من بين يديه وهو الزور إلى تحت حنكه أسود من أسفل لا كل رقبته ، ويد من يديه مطوية والأخرى مستقيمة كالذي يريد النهوض بعد ما اعتدل وقرناه أخضران في غاية الطول والحسن وذنبه طويل معكوف ثلاث طيات فوق ظهره ونازل من فوق ظهره إلى طرفه إلى بين فخذيه ويده المستقيمة فوق رقبة الأسد لكن ما هي واصلة إلى رقبته ورجلاه فوق ظهر النسر لكن مرتفعة عنه لا ملاصقة . وأما النسر فهو لا أحمر اللون ولا أسود اللون ولكنه أسود يميل إلى الحمرة شيئاً يسيراً ورؤوس أجنحته من الذهب وصدره أيضاً أزرق . أما الأسد فهو أصفر اللون يميل إلى الحمرة شيئاً يسيراً وفاه مفتوح وخشمه عند منقار النسر . ــ طبق الأصل وبأمانة عن كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ــ .

ويبدو أن تصريح الزيارة الذي حظى به القزويني لم يسمح له بالوصول إلى الجنة والنار ليصف السدنة والزبانية . لكن هذا النقص لن يفت في عضدك إذ أنك قادر بشيء من التفكير أن ترسم لهم الصورة المناسبة والملابس على ألّا تغفل التمتانات وقصيبات الشعر والألوان وأن يكون أسلوبك الانشائي قزوينياً إلى حد ما . وقد يدعوك جهلك إلى التساؤل ما حاجة ذلك الملك الذي رأسه عند قوائم العرش في السماء السابعة وقدماه في الأرض السابعة إلى جناحه الذي يهبط به إلى الأرض . لكنه سؤال ساذج يحسن بك ألّا تطرحه وإلا أعلنت عن جهلك . وإياك أن تتساءل عن السبب في أن يكون بعضهم حفاة لا نعال لهم في حين أن القائم على كتفك ينتعل حذاء رغم أن مكانه المختار المقرر هو الكتف فوق الملابس ولا شك . والدليل على صحة ما قاله القزويني أنك تجد التراب والغبار فوق كتف ثوبك الذي ترتديه أكثر مما تجده في صدره وظهره !

ولك أن تسأل كيف بلغ القزويني هذا الحد من الإسفاف في التفكير مع أنه رفع مؤلفه إلى « عطا ملك الجويني » وهو العالم والمؤرخ وأحد كبار رجال دولة الأليخانيين ــ المغول ــ بإيران الذي عين حاكماً على بغداد ثم كيف أولاه الخليفة المستعصم العباسي قبل ذلك قضاء واسط والحلة قبل دخول المغول إلى العراق . بل كيف يعتبر مرجعاً في المكتبة الإسلامية وهو على هذا المستوى الفكري الذي يرفضه اليوم أبسط المفكرين .

الجواب المفحم هو أنك تنظر إلى الأمر وتعالجه بعقلية اليوم ــ القرن العشرين ــ متناسياً أو متجاهلاً عقلية القرن السادس الهجري. أترى مبلغ ما بلغه الإنسان من تطور وفهم خلال سبعمائة عام.

ولئن أوردت مختاراً ما قاله القزويني عن الملائكة قبل نيف وسبعة قرون فما ذلك إلا لأضيف به حجة ناطقة ومقبولة تؤيد المذهب الذي أتبعه في معالجتي لأقدم حدث تداولته ألسنة البشر منذ أن بلغ الإنسان حد التعقل والإدراك حتى يومنا هذا.

كانت مقالة القزويني حينذاك تحفة رائعة تشهد بعلمه وعمق فكره، يتناقلها «العلماء» و «المفكرون» ويعتبرونها فتحاً عظيماً في عالم الفكر والإبداع.

ومن البديهي أن وصف القزويني للملائكة يتعارض تماماً مع التعريف الديني الشائع للملائكة وهو القائل أنهم أجسام نورانية تفعل ما تؤمر به ولا تعصي لله أمراً. وهذا قول لا يحتاج إلى دليل أو بينة. أكان الأمر إذن امتداداً لتأثير فلسفات الأديان السابقة في الفكر الإسلامي؟

إن التجسيد طبيعة إنسانية ــ بشرية ــ مرجعها حاجة الإنسان إلى تفسير الظواهر التي تحيط به. وهو مظهر من مظاهر التعقل والإدراك لجأ إليه الإنسان منذ بدائيته وحتى القرن الثامن عشر أو ما قبل ذلك بقليل.

الخلق والتجسيد

تخيل معي الإنسان البدائي وهو يخرج من وجاره في الصباح الباكر سعياً وراء طعامه فيرى غلالة بيضاء داكنة تغطي كل شيء على الأرض ثم ترتفع تدريجياً فتكشف عما كانت تستره ، فإذا ما بزغت الشمس وعلت في كبد السماء تبددت تلك الغلالة واختفت .

وتصور هذا الإنسان نفسه وهو ينظر إلى جسمين هائلين داكنين يسبحان في الفضاء يدنو أحدهما من الآخر فتنبعث خطوط تبهر البصر تمتد متكسرة تعقبها زمجرة هائلة تهز كل شيء من حوله ثم تهبط خيوط سائلة من أعلى إلى الأسفل تبلل كل شيء .

وذلك الخط الذي يمتد متقوساً فيزداد نمواً ووضوحاً ويتلون يتناسق حتى يشكل دائرة متسعة تتهادى بتيه واعتداد فتبعث الدفء والحرارة في جسده وتعطيه إحساساً مريحاً يتحول إلى الإيلام ثم يعود فيتلطف ويختفي متمهلاً فيعم الظلام .

وهذا الشيء الذي لا يعرف مصدره والذي تتحرك بفعله الأعشاب والأغصان وتتطاير أمامه الأجسام ، هذا الشيء الذي يصفر بين الأغصاء أو يوشوش بين الأعشاب ويطرد تلك الغلالة الهائلة السابحة في الفضاء فيبددها أو يبعدها ثم يسكن ويختفي وكأن شيئاً لم يكن .

عشرات الظواهر التي يعجز عن فعلها أو التغلب عليها وإخضاعها . ظواهر موجودة يحس بها ولا يستطيع رؤية بعضها أو لمسها ولا يعرف لها مصدراً . لا ريب أن كل هذه الأشياء الخارقة تدفع صاحب ذلك العقل البسيط البعيد عن التركيب إلى الإقرار بضعفه أمام قوتها وبالتالي إلى التقرب منها واسترضائها فيقيم لها رموزاً وأشكالاً من خشب أو حجر منحوت يودع فيها بفنّه كل أحاسيسه وما تخيله عنه من قوة وبأس وقسوة وطاقة .

تلك هي الحوافز الأولية التي حدت بالإنسان إلى إيجاد صور ملموسة للقوى التي عجز عن فهمها أطلق عليها اسم الآلهة . ولولا نمو الإدراك عند الإنسان لتصرف كما يتصرف الحيوان حيال هذه الظواهر .

ولم يتخل الإنسان في كل زمان ومكان عن هذا الحافز المتأصل. وفي قرآننا الكريم صورة واضحة وموجزة « بطلها » إبراهيم الإنسان، إبراهيم الذي تأمل الكون من حوله باحثاً عن القدرة التي لا مناص من الخضوع لها والإقرار بتفوقها وسموها فبدأ بالظواهر الطبيعية ظاهرة تلو أخرى حتى اهتدى إلى القوة الأسمى.

إن إبراهيم هذا هو الإنسان المتطلع المتعطش للاستقصاء والمعرفة. تأمل معي في هذه الآيات الكريمة:

﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ ٧٦ـ ٧٧ الأنعام.

ألا ترى معي أنها صورة الانسان منذ أن كان بدائي الفكر وحتى بات مكتمل المدارك مركب العقل قادراً على أن يجمع بين الظواهر المختلفة وأن يرجعها إلى مصدر واحد!

ولم يخل عصر من العصور من فكرة التجسيد حتى في الديانات السماوية الحديثة. لقد صور الرسام الألماني شنور Schnorr الإله الأب في الإنجيل المصور الذي صدر بين أعوام ١٨٥٢ ـ ١٨٦٠ على شكل إنسان ذي شعر كثيف ولحية وشاربين سابحاً في الفضاء ماداً ذراعيه ومتدثراً برداء فضفاض ووجهه يتطلع إلى الأرض.

ولقد بدأ تجسيد الخالق على شكل كف وأصابع ثم تدرج إلى أن تحول إلى إنسان كامل. ولم يتخلف بعض المسلمين عن غيرهم في هذا المضمار فهناك من يجسد الله في شخص إنسان يتوارث الربوبية تقدم له النذور والهدايا والنفائس بانتظام كل عام. لكنّ المسلمين الذين يقدسون دستورهم العظيم وهم الكثرة الكاثرة، بعيدون عن ذلك كل البعد.

فلا غرابة إذا جاء القزويني وغيره بصور مجسدة للملائكة مستوحاة من خيال منفعل بمفاهيم العصر وأن يبتكر الأحاديث ويعزوها إلى الله أو إلى النبي وأن يصنف الروايات ويعزوها إلى الأقدمين. وما كان بالأمس إبداعاً نعتبره اليوم افتئاتاً وتجاوزاً. ولو شاء بعضهم اليوم أن يحذوا حذو القزويني وسواه من المبدعين لما اكتفى بالوصف والتصوير والتجسيد بل لاتخذ الواقعة أساساً للدعاية لعدد من مصانع النسيج التي يورد أصحابها ألبسة أولئك الملائكة. إنها لغة العصر ولكل عصر لغته ومفاهيمه.

لقد أحطنا علماً حتى الآن بالعنصرين الرئيسيين في حادثة التمرد: الخالق العظيم والملائكة وإبليس منهم فلم يبق أمامنا سوى آدم لتكتمل الصورة أمامنا ولنخرج منها بالنتائج التي سيبرزها هذا البحث.

إن الخلاف الجذري بين تعريف العلم للوجود وتعريف الفقهاء له ينحصر في تفسير فعل خَلَقَ. فالمتحدثون باسم الدين يرون أن «خلق» تعني أوجد الشيء على صورته النهائية وليس على أسس التدرج. لذا فإن عبارة «خلق الإنسان» عندهم تعني أنه أوجده على الصورة التي نراه اليوم عليها وهذا شطط في التفسير ينفيه القرآن نفسه.

ويرى العلم أن الحياة بدأت بوحيد الخلية «الأمبيا» الذي انقسم وتكاثف بمتواليات مضاعفة حتى بلغ أرقاماً فلكية ثم راح يتشكل على صور مختلفة منها الإنسان، وهذا هو الخلق.

لكن المتحدثين باسم الدين يرفضون هذا المبدأ معتمدين على آيات من القرآن الكريم أهمها الآية الثانية والثمانون من سورة «يس» التي تقول:
﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.
فإذا قلت لهم: ما حاجة من إذا أراد أمراً أن يقول له كن فيكون إلى جمع التراب وجبله بالماء وتشكيله على شكل إنسان بما في أحشائه من أجهزة وأعضاء لينفخ فيه بعد ذلك فيصبح إنساناً سوياً وكيف ينسى صنع حواء فيأخذ ضلعين من آدم يحولهما إلى حواء أكان المتميز بهذه القدرة الخارقة مضطراً إلى صنع آدم كله وهو الذي صنع حواء من ضلعين اثنين فحسب؟ لمَ تتمسكون بحرفية مدلول الكلمات بجمود فتحصرونها في أضيق نطاق مما يتساوى مع قدرة الإنسان نفسه وليس مع قدرة ذلك الكائن الأسمى الذي لا حدود لقدرته؟ ولماذا يقضي من أمره بين الكاف والنون ستة أيام حتى وإن كانت من أيام أرضنا لخلق السماوات والأرض؟

لو قلت هذا القول لجوبهت بالسخط والغضب في أجوبة متفاوتة القسوة آخرها حكمة الخالق في خلقه ومشيئته.

إن المرجع الذي لا يرقى إليه شك ولا شبهة، وأعني القرآن، يؤكد التدرج والتطور بل ويؤكد ما ذهب إليه العلم عن بدء الخليقة وتطورها، أوردها قبل أربعة عشر قرناً عندما كان عقل الإنسان لا يمكنه الوصول إلى مجرد تخيل تلك الحقيقة.

خذ على سبيل المثال الآية السابعة عشرة من سورة «نوح» وهي الواحدة والسبعون بحسب تسلسل النزول. إنها تقول على لسان نوح لقومه:

﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾

وأعقب ذلك بقوله:

﴿ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا﴾ ١٨.

لاحظ وضوح الفارق بين «نباتا» أي بحسب قانون النبت وبين «إخراجا» الذي يعتمد على الإرادة فلا يستطيع الإنسان المُخْرَج أن يتلكأ في الخروج.

ثم اقرأ معي هذا التأكيد الذي لا يقبل الجدل والذي جاء في وضوح مفحم في سورة الانفطار — (الثانية والثمانون حسب ترتيب النزول) — قال:

﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾ ٦ — ٨.

أيعمى أحد عن التطور الواضح في مراحل التحول عند الإنسان بدءاً بالخلق ثم التسوية ثم التعديل ثم الصورة النهائية التي بات عليها اليوم. ولو كان الخلق هو كل شيء وكان لا يخضع لقانون ونظام سابقين لكان ما ورد في هاتين الآيتين مجرد لغو لا يعتد به.

فالخلق إذاً هو المرحلة الأولى التي أعقبتها التسوية ثم التعديل اللذان استغرقا ملايين السنين حسب سنن التطور على هذه الأرض لينتهي الأمر إلى الصورة النهائية.

بل تعال نرجع إلى أول خطاب بين الخالق والإنسان الذي اختاره رسولاً ليبشر بنظامه الأخير المتطور وينشر تعاليمه. يقول في سورة «العلق» وهي الأولى حسب ترتيب النزول:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾

فهل رأيت رجلاً راشداً يولد كاملاً متكاملاً؟ لو كان الأمر كذلك لما كانت هناك مراحل نمو ولما كان موت.

من هنا نستنتج أنه لا خلاف مطلقاً بين العلم والدين في المعطيات العلمية لولا تزمت بعض المتحدثين باسم الدين. ولقد أكد القرآن مفهوم التطور الذي ينادي به العلم فقال في الآيتين ١٣ و ١٤ من سورة «نوح»:

﴿مالكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا﴾.

ويفسر المتكلمون باسم الدين «أطوارا» هذه بأنها تعني التحول الذي يتعرض له الجنين في رحم أمه وكذلك يفسرون الآيات التي نلمس فيها مفهوم التطور العلمي، متغافلين عن

الآيات الكثيرة التي تعدد صراحةً هذا التطور ابتداءاً من الحوين المنوي وحتى موت المخلوق بعد مختلف مراحل العمر .

ونوح هذا الذي جاء القول على لسانه كان الثالث بعد آدم وإدريس ولم يكن آنذاك علمٌ إسمه « الأنتروبولوجيا » النشوء الفيزيائي للإنسان .

وإذا كانت هذه الحقيقة قد أوضحت للناس منذ أربعة عشر قرناً فسبقت ما ينادي به العلم ويؤكده اليوم وكان الفحص المجهري قد أثبت أن الحوين المنوي الذي يلقح البويضة التي تفرزها الأنثى من قناة « فالوب » إلى رحمها ، إنما هو كالعلقة في الشكل والحركة وذلك قبل أن تكون هناك مبادئ لما يعرف اليوم بعلم الأحياء ، فإن ما يسلكه العلماء الماديون اليوم في عداد الاكتشافات التي يعتزون بها قد جاء من قبل في القرآن حقيقة بديهية لا تحتاج إلى برهان . فهو إذاً أفضل مرجع .

ولقد جاء ذكر خلق البشر في القرآن دون ربطه بآدم في موضعين اثنين مقروناً بتمرد إبليس في حين جاء في ثلاثة مواضع أخرى يجمع بين آدم وإبليس في السياق وكأنه ينوه صراحة إلى أن تسمية آدم هذه إنما جاءت للدلالة على النوع وليس على شخص محدد .

ومن جهة أخرى نلاحظ أن خلق الإنسان وتسلسله ، أي تطوره حتى عصر التاريخ قد جاء في آيات كثيرة من هذا المرجع المفحم أورد فيما يلي أكثرها شمولاً لمراحل التطور :

١ ــ ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث **فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة** ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفّى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ــ الآية الخامسة من سورة « الحج » ــ .

٢ ــ ﴿ هو الذي خلقكم من **تراب ثم من نطفة** ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ ــ الآية السابعة والستون من سورة « غافر » ــ .

٣ ــ ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من **سلالة من طين** ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ــ الآيات الثانية عشرة وحتى الرابعة عشرة من سورة « المؤمنون » ــ .

٤ ــ ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾ ــ الآية الحادية عشرة من سورة « فاطر » ــ .

٥ ــ ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذا **أنشأكم من الأرض** فإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ ــ الآية الثانية والثلاثون من سورة « النجم » ــ .

٦ ــ ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي **خلقك من تراب** ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ ــ الآية السابعة والثلاثون من سورة « الكهف » ــ .

إن هذه الآيات البينات تحسم بشكل قاطع الخلاف بين العلم وبين المتزمتين من المتحدثين باسم الدين .

لكننا لسنا بصدد البحث في الإنسان الذي نراه اليوم بل في أول نموذج للإنسان السوي أطلق عليه اسم آدم .

ولقد سبق لي القول : إن ذكر خلق البشر مقروناً بإبليس دون إيراد ذكر لآدم قد ورد في موضعين . وإذا علمنا أن واقعة التمرد هذه قد وردت تفصيلاً في خمسة مواضع من المرجع الوثيق ، فإن بيان تسلسل نزولها زمنياً يأتي بفائدة تساعد على الإيضاح والإحاطة بحكاية الخلق بشكل أكثر رسوخاً وإيجابية .

إن أول ذكر لهذه الواقعة جاء في سورة « ص » وهي الثامنة والثلاثون بترتيب النزول ويتركز الموضوع فيها حول خلق بشر من طين . أما في سورة « الأعراف » وهي التاسعة والثلاثون بترتيب النزول ، أي التالية للسورة السابقة ، فقد جاء فيها ذكر آدم بطريقة من يروي واقعة يستشهد بها ليصل إلى غاية أفضل ، مجرد موعظة للذين يعقلون . وجاءت بعد ذلك في سورة « طه » وهي الخامسة والأربعون بأسلوب مماثل لما وردت فيه في سورة « الأعراف » السابقة . وفي هاتين الآيتين استبدلت كلمة « بشر » بكلمة « آدم » . لكنه عاد في سورة « الحجر » وهي الرابعة والخمسون، يركز على خلق البشر من الصلصال في حين حفلت سورة « البقرة » وهي السابعة والثمانون وكانت أول سورة مدنية ، بذكر واف للواقعة جمع فيها كل التفاصيل .

ومن هذه التفاصيل نستطيع أن نجمع شتات فكرنا وأن نركز على موضوع التسلسل هذا لندرك ذكاء الأسلوب الذي اتبعه الخالق العظيم في تنوير أفكار البشر وتعليمهم ما كانوا يجهلون .

تعال معي نستعرض ما جاء في الموضع الأول. لقد شغل ذكر هذه الواقعة خمسة عشر آية من سورة «ص» جاءت متوالية ابتداء من الآية الواحدة والسبعين.

﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾ ٧١.
﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ ٧٢.
﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ ٧٣.
﴿إلا ابليس استكبر وكان من الكافرين﴾ ٧٤.
﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيدي، أستكبرت أم كنت من العالين﴾ ٧٥.
﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ ٧٦.
﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ ٧٧.
﴿وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾ ٧٨.
﴿قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون﴾ ٧٩.
﴿قال فإنك من المنظرين﴾ ٨٠.
﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ ٨١.
﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ ٨٢.
﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ٨٣.
﴿قال فالحق والحق أقول﴾ ٨٤.
﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ ٨٥.

هذا هو النص الذي ورد في الدرس الأول الذي أراد الله أن يلقنه لعباده المتعقلين. ونلاحظ في هذا السياق أن الخالق أبلغ الملائكة بأنه خالق بشراً من طين. والكلمة هنا محدودة المعنى مستقرة الوضع. فكلمة «بشر» لا تعني فرداً واحداً بل هي اسم نوع تماماً كما نطلق تعريف النبات على كل ما ينبت.

وقد يعترض بعضهم على ما ذهبت إليه مستشهداً بما جاء في الآية الثانية:
﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.
لكنه اعتراض يفتقر إلى الوجاهة لأن اسم الجمع مفرد يجوز فيه الإفراد كما يجوز الجمع فما بالك إذ كان اسم نوع. ألا نقسم ما يعجّ به الوجود إلى حيوان ونبات وجماد فإذا تعددت الأصناف جمعناها لنعبر عن المجموعات المختلفة التي تدخل تحت هذه التسمية المفردة.

وتستوقفنا في هذه الآية المادة التي قرر الله أن يخلق منها ذلك البشر . إنها الطين . والعلم يؤكد أن وحيد الخلية « خُلق » في التربة الرطبة ، في الطين وهذا يحسم كل خلاف .

وفيها نقف أمام ملاحظتين هامتين . الأولى قوله : فإذا سويته . وهذا الفعل يأتي مباشرة بعد الخلق كما ترى ويدل دلالة واضحة على أن الخلق شيء والتسوية شيء آخر مختلف وإلا لقال : فإذا خلقته فقعوا له ساجدين .

وسجود الملائكة ورفض إبليس لما يأتيا فور ما قاله الله عما سيخلق أو عما خلق بمعنى أنه لم يجمع الملائكة ليكونوا شهوداً على عملية التسوية التي نفذها أمامهم ، إنها حقبة تالية يتحدث عنها الخالق تأتي بعد الخلق أي على الإنبات من الطين ، حقبة تشكل الإنسان خلالها على شكل معين استدعى التسوية ليصبح أكثر تطابقاً مع ما أريد له أن يكون .

والملاحظة الثانية هي قوله : ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وهذا لا يعني ﴿وجعلته حيا﴾ . فالروح هنا ليست ما تعارفنا عليه للتعبير عن الحركة والحياة . صحيح أن التسوية بعد الخلق لم تكن كافية لأن المتحصل منها جسم يتحرك على شكل ما . فالروح التي نفخ فيه منها هي التي تستحق أن يقع الملائكة لذلك المخلوق ساجدين . ولو كان الخلق والتسوية وحدهما كافيان لكانت العبارة التي تلتهما زائدة يمكن حذفها دون أن يتأثر المعنى .

يقول العلم إن الإنسان البدائي كان حيواناً يسير على قدمين ، يغطي الشعر جسده ليقيه عاديات الطبيعة ، يختلف في مقاييسه اختلافاً بيناً عن الإنسان الحالي ، يهمهم ولا يتكلم ، ويتصرف بغريزة أمثاله من الحيوانات الأخرى .

والتفسير الوحيد المستساغ لعبارة ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ هو أن الله في تلك الحقبة من تطور الإنسان مكّنه من تسخير الحركة . فهو الذي علم الإنسان ما لم يعلم وهو الذي لا يحيط من في السماوات والأرض بشيء من علمه إلا بما شاء من ذلك الشيء فالنفخة هذه هي الإدراك الذي يتولد في العقل .

إن الخلق والتسوية انطبقا على كل المخلوقات كمبدأين أساسيين وقد صنفها الإنسان تحت اسم المخلوقات غير العاقلة . ولو ظل الإنسان على ما كان عليه عند التسوية لتساوى مع تلك المخلوقات غير العاقلة في المرتبة وفي الالتزام ، ولكان أمر الله للملائكة بالسجود لغير العاقل أمراً يستدعي حكماً أن يشمل كل مخلوقات الأرض دون استثناء .

لكن الله اختص الإنسان بقدرة التعقل والإدراك فامتاز بها عن الحيوان لأنه يمتلك غرائز هذا الأخير متوجة بالعقل وبالتالي بالإدراك والمعرفة وهما سر القدرة وجوهرها .

ولو كانت عبارة ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ تعني «أودعت فيه جزءاً من ذاتي الإلهية» غير قدرة الإدراك والتعقل لصح قول من ينادي بأن الإنسان ابن الله لأنه يحوي جزءاً منه والجزء يتبع الكل وينسجم معه وينصهر فيه وبذلك نعود إلى مذهب الحلولية.

لكننا لا نكاد نفرغ من إيجاد التفسير المنطقي للملاحظات السابقة حتى نفاجأ بما هو أشد وقعاً وغرابة وهو أمره تعالى للملائكة: ﴿فقعوا له ساجدين﴾.

لقد درج العرف عندنا بحكم المشاهدة والتطبيق على أن السجود هو وضع الجبهة على الأرض متساوية مع الأنف في استقامة واحدة. هذا هو السجود كما نعرفه. ولو صح هذا الوصف وانطبق على ما أمر الله الملائكة به لوجب أن تكون هناك أرض يسند الملائكة جباههم عليها وأن يكونوا ذوي رؤوس وجباه أي ذوي أجساد وهذا يتنافى مع الخلق النوراني. ولوجب كذلك أن يكون البشر الذين نفخ الله فيهم من روحه والملائكة في مكان واحد ليسجد هؤلاء بينما يبقى الآخرون واقفين. لكن السياق ينفي هذا الاحتمال. فالآية السابعة والسبعون تقول لإبليس الذي رفض السجود:

﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾.

ولو كانت الأرض مسرح هذه الواقعة لوجب أن يكون إبليس ومن معه في موقع آخر غير الأرض. ولو كانت السماء مسرح هذه الواقعة وهي التي طُرد منها إبليس لوجب أن يكون البشر الذين تم خلقهم وتسويتهم ونفخ روح الله فيهم في الملأ الأعلى، وهذا احتمال ينفيه السياق كما سنرى. ووجود إبليس ومن معه على الأرض التي يعيش عليها الإنسان عرضة لإغرائه ووسوسته يدل دلالة واضحة على أن الحدث قد وقع في مكان طرد إبليس منه بعد عصيانه فأغلق في وجهه.

وليس مستساغاً أن يكون الخالق قد نزل من عليائه مع ملائكته إلى الأرض ليتم فيها السجود بعد أن ينتهي من الخلق والتسوية كما يرفض العقل أن يكون الخالق العظيم قد وقف أمام هذا المخلوق ليعدل جانباً من صورته في عملية التسوية فيصحح شكل أنفه ويعدل طول أذنيه ويحذف نتوءاً بارزاً هنا ويضيف قطعة هناك ويسوّي عضلة ويقوم عظماً كما يفعل المثال بصلصاله عند تشكيله للصورة التي أرادها، رغم قوله صراحة:

﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾

واليد كما نعرفها تتكون من كف مرتبط برسغ ذي خمسة أصابع وسلاميات تغطي الأظافر نهاية أناملها.

لقد أثرت هذه النقطة لأدعوك بإخلاص وقوة أن تحذر الوقوع في هذا الخطأ الشائع. حذار حذار!

إن الخالق يروي لنا بلغتنا التي نفهمها والتي تحددت مدلولات كلماتها بما يتفق وواقعنا الحياتي واقعة معينة وترك لنا مهمة استيعاب مراميها وفقاً لمراحل تطور عقولنا ومداركنا. ولو أنه خاطبنا بلغته ــ هذا إذا كانت له لغة خاصة ــ لما فهمنا منها شيئاً. ولغتنا على سعتها وفصاحتها وبلاغتها وبيانها محكومة بالزمان والمكان وبطاقة الإنسان وإبداعه. لذا فقد وقع كثير من البسطاء في خطأ تفسير الكلمات فأخذوها على واقعنا الحياتي وتمسكوا بمعانيها المحدودة فتزمتوا وتحجروا وتخلفوا. ولو أمعنوا الفكر قليلاً لوجدوا أن لغتنا رغم ثرائها عاجزة عن التعبير عن الفعل الإلهي بالصورة التي يتم بها ذلك الفعل. فقوله على سبيل المثال:
﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾

تعني في عرفنا أن الله سبحانه جاء يختال في مشيته على إيقاع دقات الطبول يستعرض الملائكة الذين اصطفوا لاستقباله تماماً كما يجري هذا الفعل عند زيارة عاهل أو عظيم لعاهل أو عظيم آخر. وهو تفسير غير صحيح مطلقاً وإلا لانحصر وصف الحكاية التي رويت في الآيات السابقة في نطاق فعل الإنسان ولكانت تسوية الخالق العظيم لذلك البشر مطابقة تماماً لتسوية الإنسان لتمثال ولكانت نفخته كنفخة إنسان يحاول إطفاء شمعة أو عود ثقاب. وليس الأمر كذلك على أي حال. إنها صورة كلامية لتقريب المفهوم إلى أذهاننا بمدلول لغتنا وحسب. فنحن نصف الله بالعظمة ونسحب هذه الصفة على العظماء من بني الإنسان فهل تستوي العظمتان؟ ونصفه بالقدرة ونطلق هذا الوصف على كل قادر على أرضنا ونقول إنه كريم ونصف أمثالنا من ذوي الجود بالكرم فهل يستوي القادر في الأرض مع ذلك القدير وكريمها مع ذلك الكريم؟ ولقد عمدنا إلى استعمال كلمات اصطلحنا على إعطائها مفهوماً خاصاً لتفي بهذا الفارق الهائل بين صفات المخلوق والخالق فقلنا هو كلي القدرة لا متناهي الوجود فهل ترانا حددنا صفاته كما هي عليه من شأن أم أننا اعترفنا بعجزنا باستعمال أقصى ما لدينا من قول ممكن؟

أكرر القول: حذار حذار أن تؤخذ بحدود مرامي كلماتنا فتطبقها على ما لا تنطبق عليه. فليس في الخالق زمان ولا مكان ولا حدود. فإذا دام خلقه للسماوات والأرض ستة أيام حتى ولو كانت من أيام الأرض كما تدلل عليه الكلمات المستعملة في إيراد هذا النص فكم يوماً يا ترى استغرق خلقه لهذه المليارات التي لا تحصى من المجرات والنجوم؟

خذ المقصود من الكلمات بلغتنا ومفهومنا واجعله في نطاق غير حسي وغير محدود وبذلك تكون أقرب إلى الوعي والفهم مما لو تقيدت بحسياتنا الحياتية . اللهم لقد نبهت ! إن الخلافات التي وقع فيها المجتهدون والفقهاء عبر الأجيال تكمن كلها في وصف الخالق و « بيئته » و « مجتمعه » بكلمات تنطبق على بيئتنا ومجتمعنا وبذلك كانوا يصفون ما لا يوصف بعبارات محدودة الأبعاد والمرامي .

فنحن ، معشر البشر ، إذا أردنا فعل شيء ، تحركنا واستعنا بأيدينا وأقدامنا وعضلاتنا وأعصابنا بإشراف عقلنا لإنجاز الفعل المطلوب . لذلك قال تعالى في الآية الخامسة والستين من سورة « يس » :
﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .
ليؤكد أن الإنسان لا يستطيع فعل شيء دون حركة . قد يفكر وهو ساكن ، لكن الفعل لا بدّ أن يشفع بحركة . ولأننا نعرف ذلك ، هل يجوز لنا أن نطبق فعل الحركة على الخالق العظيم ؟ إننا نطبق هذا المفهوم بسذاجة على أفعال الخالق وللأسف . وهذه علة الخطأ وأس الخلاف . ولو كان الخالق بحاجة إلى الحركة ليفعل ، لكان بحاجة كذلك إلى مقومات تلك الحركة مثلنا وإلى ما يزوده بالطاقة للقيام بالحركة وهذا لا يمكن أن يكون .

لذا ، فإن الأفعال المنسوبة إلى الخالق إنما اختيرت من كلمات تعني بمدلول تصرفاتنا لكنها تقصر عن التعبير عن حقيقة فعاله .

وخلاصة القول إن آيات القرآن الكريم كلها بصورة عامة وما ورد في هذا السياق بصورة خاصة حول تصرفات الخالق إنما يعطي فكرة وفق مفاهيمنا دون أن تُعتبر محددة للكنه والكيفية . إن تصوير فعال الخالق بكلمات محددة من لدنّا إغراق في خيال سقيم . إنها مجرد بلورة فكرة في أذهاننا وفق مفاهيمنا دون التمسك بالصورة الحركية المقابلة لها في سلوكنا أو ربطها بطبيعة تصرفاتنا .

وقول الخالق لإبليس :
﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾
مجرد تعبير يدل على عناية الفاعل بما فعل . فالخالق خلق هذا الوجود كله « بيده » وبنفسه ولم يحظ البشر وحده بهذا الشرف وشتان بين يدنا ويده . ولعلك مررت بكلمة « لما » مر الكرام . هلا توقفت عندها قليلاً ؟ ألا تراه يقول « لما خلقت » لا « لمن خلقت » . ألا تدرك المعنى ؟ ألا نستعمل بلغتنا « ما » لغير العاقل و « من » للعاقل ؟ هل أدركت المفهوم العميق الذي عناه الخالق العظيم ؟

هناك حكمة باللغة الفرنسية تقول « الإرادة هي القدرة » أو « أن تريد هو أن تفعل » Vouloir C'est Pouvoir . ومدلول الآية :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾

يؤكد إن الإرادة هي القدرة .

ولنعد إلى حكاية السجود . نقول : لقد خلق الله العظيم بشراً ثم سواه ثم أعطاه الإدراك والعقل ثم طلب من الملائكة أن يسجدوا لما خلق . ولا ريب أن المكان الذي وقع الحدث فيه هو ملكوت السماء والبشر الذي خلقه كان على الأرض ، لذلك لا يمكن حمل كلمة « السجود » هنا على المفهوم السائد بين المصلين ، بل تعني الإقرار بتفوق هذا المخلوق وأفضليته ووجوب العناية به . وسجودنا في صلاتنا ليس مجرد حركة طقسية خالية من الفحوى بل هو اعتراف بعظمة من نسجد له وإقرارنا بتفاهة شأننا وانعدام كل قيمة لوجودنا إذا ما انحسرت عنا رعايته . وعندما نقف للصلاة نقول إننا نقف بين يدي الخالق وإننا نخاطبه بدعائنا ، فالسجود إذاً اعتراف بأفضلية المسجود له وهذه الأفضلية تتفاوت درجاتها بين الأفضلية المطلقة التي لا حدود لها والأفضلية النوعية .

ولكن لماذا يأمر الله الملائكة بأن يقروا بتفوق هذا المخلوق الجديد عليهم وهم الذين نذروا وجودهم للامتثال لأوامره والبعد عن كل ما يغضبه ولا يرضيه ؟

وإذا كان الملك قد أعطي حق الاختيار فآثر الخير وحصر حركته في نطاقه فكيف يطلب الله منه أن يقر بتفوق مخلوق لا يتمتع بصفة أفضل مما امتاز به من الفضيلة ؟

سؤال وجيه يستوجب رداً وجيهاً ومقنعاً وإلا كان أمر الله بأن يسجد الأعلى للأدنى أمراً جائراً لا يقره عقل ولا منطق ولكان إبليس محقاً كل الحق في رفضه .

ويبدو أن إبليس قد طرح على نفسه هذا السؤال ولم يجد له رداً مقنعاً فرفض الامتثال للأمر ، أمر سجود الأعلى للأدنى . ولما سئل عن السبب كان جوابه غاية في السطحية والغباء ، يجسد « الأنا » الذي يجيش في نفوس البشر ويدفعهم إلى الإغراق في الخطأ والانحراف .

ولقد بنى إبليس رفضه على أساس الفارق « المادي » في التكوين . إنه خُلق من نار والبشر من طين . والنار أسمى وأرق وأطهر وقد عبدها كثير من البشر بعد أن شاءت الصدفة أن يوقدها الإنسان البدائي .

إذاً ، لقد أخذ إبليس الأمر بظاهره تماماً كما يفعل « ارستقراطي » من بني الإنسان إذا طلب منه الاعتراف بفضل إنسان من عامة الناس . سيثور في هذه الحالة مستنكراً متذرعاً

بأنه ابن المجد والسلطان متناسياً أنه لا يختلف عن الإنسان الآخر إلا في الوضع الاجتماعي في حين أن الأرومة والفضيلة واحدة. فالوضع الاجتماعي يرسخ في ذهن ذلك الارستقراطي قناعة عميقة الجذور بأنه فوق مستوى الآخرين. فكيف بإبليس وهو ليس من فصيلة ذلك البشر ولا من أرومته وشتان بين النار والطين.

لقد امتثل الملائكة الآخرون لأمر الله لثقتهم المطلقة بعدالة الآمر وحكمته وعلمه. ولكن، كيف يرتكب إبليس مثل هذا الخطأ الفادح وهو من الملائكة ذوي الأسماء المميزة على غرار إسرافيل وميكائيل وعزرائيل وغيرهم ممن انفردوا بأسماء تعرّفهم.

ستجد هنا بعض الفقهاء ينفي صفة الملائكة عن إبليس استناداً إلى الآية الخمسين من سورة «الكهف» وهي الوحيدة التي ورد فيها ذكر تمرد إبليس عرضاً:
﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس **كان من الجن** ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا﴾.

ويذهب هنا البعض إلى القول: إن إبليس هذا كان في مجلس الملائكة حين صدور الأمر وهو ليس منهم، وإن من الطبيعي أن يحذو الأدنى في ذلك المجلس حذو الأعلى، أي أن الله عندما أمر الملائكة بالسجود فإن أمره كان يشمل كذلك من هم أدنى مرتبة من الملائكة وهو إبليس.

وأنت ترى ركاكة هذا التبرير. إذ كيف يسمح الخالق أن يحضر «مجلسه» نفر من غير الملائكة فيشاركوا في أمور الملك وهم ليسوا على شيء من ذلك، لا دور لهم ولا فعل ولا وجوب.

إذاً، لقد رفض إبليس السجود متذرعاً بطبيعة تكوينه التي هي أسمى من الطين.

لكننا نحار هنا في فهم تصرف هذا الخالق العظيم. فعلى الرغم من أن إبليس هذا قد أعطى مثلاً سيئاً للملائكة الآخرين بعصيانه أمر السجود، فإن «رد الفعل» عند الله اقتصر على طرده إذ قال:

﴿فاخرج منها فإنك رجيم وأن عليك لعنتي **إلى يوم الدين**﴾.
والضمير المتصل بحرف الجر «منها» يدل على مكان الواقعة وهو الملكوت الذي اختاره الخالق مسرحاً لهذه الواقعة: «السماوات»، والذي نعجز عن تحديد مكانه وطبيعته.

وأن يؤمر بالخروج من ذلك الملكوت يعني بالضرورة حظر عودته إليه وبالتالي وجوب إقامته مع أنصاره في مكان آخر لم تغب معرفته عن فطنة إبليس لذا رأيناه يطلب إلى الخالق أن ينظره .

و « انظرني » هذه معناها أبعد الموت عني . فالملائكة بوصفهم أجساماً نورانية مجردة عن المادة لا يموتون ولا يفنون لأن المادة هي التي تفنى كما يقول أصحاب نظرية التطور تتحول إلى طاقة ثم إلى مادة وهكذا . وليس شرطاً أن تتحول دائماً من الطاقة التي أصبحت عليها إلى الصورة التي سبقت تحولها إلى طاقة .

ونلاحظ كذلك أن الخالق عندما طرد إبليس حمّله لعنته إلى يوم الدين ، أي أن واقع البعث والنشور كان قائماً حتى قبل خلق البشر من طين وتسويته ، يؤكد ذلك قول الخالق :
﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .
فالفناء إذاً قانون سابق النفاذ على كل خلق قبل الإنسان وبعده . فكيف يطلب إبليس إلى الله أن ينظره وهو الذي خلق من مادة لا تفنى أصلاً ؟

الجواب البديهي الوحيد هو أن طبيعة المادة التي خلق منها إبليس والملائكة لا تفنى ما دامت قائمة في الوسط الذي هم فيه وهو وسط لا يحوي مؤثرات فاعلة في مادة تكوينهم فتفنيها . وخروجه من ذلك الوسط إلى بيئة جديدة تحوي عناصر فاعلة في بنيته يعرضه للفناء . لذا فقد طلب إلى الخالق أن ينظره .

إن صح هذا الاستنتاج جاز لنا القول : إن طبيعة الأرض تفعل في المواد كلها فتفنيها خلال توقيت يختلف باختلاف طبيعة المادة المتفاعلة المنفعلة نفسها . ومن هنا كان الفناء الذي نطلق عليه اسم الموت نتيجة طبيعية لكل من يقيم وما يقيم على الأرض .

وهذا الاستنتاج يرد على تساؤل المتشككين الذين يسخرون من فكرة الأزلية والخلود في عالم آخر . إنهم يظنون أننا سننتقل إلى ذلك العالم الآخر بأجسادنا هذه وبأشكالنا وتكويناتنا المادية الحالية . ولاستحالة مثل هذا الخلود بنوا سخريتهم وشكوكهم على مفهومهم المادي .

نحن نفنى هنا ، نموت ، لكننا إذا ما انتقلنا إلى بيئة خالية من المواد الفاعلة ، انتفى التفاعل واستقرت البنية على تكوينها وتحقق الخلود .

ومن أبرز ظواهر التفاعل على الأرض المرض والشيخوخة والعجز وتغيّر بعض المعالم المميزة وضعف بعض الأجهزة ثم سكون الحركة لنفاد المادة المحركة .

فإبليس إذاً كان يعرف هذه الحقيقة . كان يعرف أنه إذا ما طرد من الملأ الأعلى لن يكون له مستقر إلا في الملأ الأدنى ، وهو حافل بالمؤثرات الفاعلة التي تهدد بنيته فتفنيها ، لذلك طلب من الخالق أن يحصنه ضد الفناء بأن ينظره .

والغريب المذهل أن الخالق قد استجاب لطلبه فحدد خلوده بيوم الوقت المعلوم والمعنى صريح وواضح . فإبليس لن يموت ما دام الكون قائماً على الأرض . سيظل حياً حتى تحين الساعة . فإذا ما حانت ، جيء به ليقدم حساباً عما فعل خلال الدهور والعصور وليُنزل به العقاب الذي يستحقه خلافاً للملائكة الذين كان منهم والذين لا يفنون ولا يحاسبون . لم تغير اللعنة التي حلت به من جراء تمرده شيئاً من تكوينه الخلقي بل حرمته من مرتبة الملائكة الطيّعين وأخرجته من « مجتمعهم » وأخضعته للمساءلة والعقاب .

وبدلاً من أن يحاول إبليس الاعتذار عما بدر منه والاستغفار عن رعونته وهو العارف بما بات ينتظره وإن طال الأجل ، نراه سادراً في غيه مصراً على عصيانه ، ينهي سلوكه العجيب بتحد وقح مقسماً بعزة الخالق أن يعمل على غواية البشر أجمعين إلا القلة القليلة المخلصة منهم التي لا تستجيب لإغراءاته . وقوله :

﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾

ورد الخالق الحاسم بقوله :

﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾

دليل واضح على أن البشر الذي جاء ذكره في الآية الأولى إنما يعني النوع وليس الفرد ، أي الإنسان منذ الخليقة وحتى نهاية العالم وإلا لقال إبليس : (فبعزتك لأغوينه) ولانتهت المشكلة عند أول مخلوق أراد الله أن تسجد الملائكة له بعد تسويته .

لكن قول إبليس الأخير يجمع بين نقيضين : الأول اعترافه بعزة الخالق رغم تمرده على أمره بدليل قسمه بعزته . ومن يؤمن بعزة الخالق وقدرته قمين بأن يخضع له وأن يحاول التكفير عن خطأ ارتكبه في لحظة تهور أو انفعال إذا جاز هذا القول ، فيعمل ما في وسعه ليدلل على صدق توبته وشديد ندمه طمعاً بالصفح والغفران .

والنقيض الثاني إصراره على المعصية بتأكيده العمل على غواية البشر الذين خلقهم الله وسلالاتهم أجمعين . أي أنه اعتبر أولئك البشر الذين لم يسهموا بأي دور عملي في مأساته ، مسؤولين عما حلَّ به وعن النتائج الماحقة الأليمة التي تنتظره ، فلم يكتف بالخطأ الأول بل اشتط في تحديه وغروره مهدداً بغوايتهم أجمعين . إلا أنه استدرك أخيراً فاستثنى منهم الصالحين .

وقول إبليس هذا له دلالة واضحة وبليغة تعني أن الذين لا يستجيبون لإغرائه هم المخلصون والمستجيبون هم عباد غير مخلصين .

ويتقبل الخالق « التحدي » أيضاً ويكتفي بالتهديد بملء جهنم من إبليس وذويه وممن يستجيبون لغوايته وإغرائه ويسدل الستار على هذه الواقعة المثيرة .

هنا تقوم ظاهرة محيرة للفكر مثيرة للوساوس .

خلاف يقع ــ إن صح هذا التعبير ــ بين الخالق وملائكته الذين خلقهم من مواد لا تنفعل فلا تفنى ، يؤدي إلى تمرد بعضهم ، فيطرد هذا البعض ويلعنه وتقع مغبة الفعل كله على جانب ثالث لم يكن طرفاً في ذلك الخلاف .

فالبشر المخلوق لم يلتمس من الخالق أن تقرّ الملائكة بتفوقه أو أن يسجدوا له ــ تقيداً بحرفية الكلمة ــ ، بل إن الخالق هو صاحب الفكرة والأمر . فكيف يدفع البريء ثمن ما لم يفعل ؟ لمَ يبعث الخالق إلى مجتمع الإنسان ملكاً رجيماً مع أنصاره ، لا تحده أو تتبينه أجهزة إبصاره ، يسخر في الخفاء كل الوسائل لإغوائه وإبعاده عن السبيل القويم ليحق عليه العقاب يوم القيامة وهو الذي كان لولا هذه الواقعة ، سيعيش حياته مسربلاً بالفضيلة ولانتهى أمره إلى الخلود في جنات النعيم دون عناء أو نصب !

سؤال ثان نبقيه دون جواب حتى ننتهي من تحليل الآيات الأخرى التي جاءت تصف هذه الواقعة الفريدة . أما السؤال الأول فكان لمَ يأمر الله ملائكته بالسجود للإنسان مع أنهم أفضل منه خلقاً .

لننتقل الآن إلى سورة « الأعراف » التي جاءت كما سبق القول بعد سورة « ص » . سترى معي اختلافاً بيناً في الأسلوب والغاية وسياقاً مختلفاً عما ورد في السورة السابقة . يبدأ ذكر الواقعة بالآية العاشرة :

﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾ ١٠ .
﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ ١١ .
﴿ قال ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ ١٢ .
﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ ١٣ .

﴿قال انظرني إلى يوم يبعثون﴾ ١٤ .
﴿قال إنك من المنظرين﴾ ١٥ .
﴿قال **فبما أغويتني** ، لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ ١٦ .
﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ ١٧ .
﴿قال اخرج منها مذءوماً مدحورا . لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ ١٨ .
﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ ١٩ .
﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا **ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾ ٢٠ .
﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ ٢١ .
﴿فدلّاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة **وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين**﴾ ٢٢ .
﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ ٢٣ .
﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ ٢٤ .
﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ ٢٥ .
﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً . ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ ٢٦ .
﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . إنا **جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾ ٢٧ .

وقد وردت الآيتين الأخيرتين رغم أنهما خارج موضوع التمرد لغرض سوف تتبينه من السياق .

الواقع أن هذه الآيات لا تروي واقعة بقدر ما تعظ السامعين . فالله سبحانه يخاطب الناس في القرن السابع الميلادي ويذكرهم بلمحة سريعة بمراحل تاريخهم الطويل ويحذرهم من الخطأ واضعاً أمام أعينهم صورة مأساتهم الأولى التي توارثوا نتائجها للمقارنة والترجيح عند الاختيار . إنها تذكرة بإيلام وعتب ، الغاية منها إيقاظ الضمائر وتنبيه الغافلين بعد ظهور دينين

سابقين يدعوان إلى ما يريده الخالق. فهو قد مكّن الإنسان في الأرض وهيأ له كل وسائل الحياة وجعلها متاحة دون حجر ولا تقنين. لكن الإنسان قليلاً ما يشكر هذا العطاء الكريم بالتعايش في حدود الأخلاق والفضيلة. فالمعطي لم يطلب شيئاً لذاته مقابل هذا العطاء السخي الذي لا ينقطع. ولئن ساءت الأمور في بيئات اجتماعية أو ساد الإملاق والعوز بعض المجتمعات الإنسانية فإن الذنب في ذلك ذنب الإنسان الذي أساء استعمال ما مُنح له فاستغل واحتكر وتحكم وقسر مخالفاً تعاليم الخالق العظيم وإرشاداته.

وعلى الرغم من قالب النصح والموعظة الذي وضع فيه السياق فإننا نلاحظ أشياء كثيرة تستوقف الانتباه. فهو يقول في الآية الثانية:
﴿ولقد خلقناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾
إنها مفاجأة تستدعي التوقف والتأمل.

فهذه السورة «الأعراف» هي الثانية على التوالي بعد «ص» التي جاء فيها ذكر إبليس لأول مرة. وفي السورة السابقة كان الحديث عن خلق بشر من طين أما هنا فقد اختلف الأمر. إنه يتحدث عن الخلق ثم التصوير. و «ثم» هذه، وهي أداة عطف انتقالية إذا جاز لنا القول، تجمع المرحلة الأولى من الخلق مع المرحلة الرابعة والأخيرة باعتبار أن المقصود من النص ليس الواقعة نفسها بل العبرة التي تستخلص منها وهذا أسلوب شائع في لغتنا.

ثم إن أمر السجود يتحول إلى المدعو آدم بعد أن كان محصوراً في البشر الذين خلقهم الله من طين، وهو اسم لم نسمع له من قبل. فهل دُعي الملائكة للسجود مرتين، مرة للبشر ومرة لآدم فرفض إبليس السجود في كلتا المرتين؟

وأن يكون التذكير واللوم الموجهين للإنسان في هذه المرحلة الأخيرة من تطوره أمراً بديهياً في هذا السياق لأن التعاليم السماوية المفصلة والمكتوبة لم تنزّل إلا على هذا الجيل من البشر، فإن استبدال اسم إبليس باسم الشيطان أمر يدعوا للتوقف. أهناك إبليس وشيطان يخاصمان الإنسان ويغويانه أم ترى طرأ تعديل على اسم الأول بعد أن طُرد من الملأ الأعلى فخسر كذلك اسمه الذي كان يعرّف به لتمييزه واستعيض عنه باسم جديد هو الشيطان؟ صحيح أن مهمة الرسل في الأحقاب السالفة كانت تنحصر في تعريف المخلوق بالخالق وتوجيهه إلى ما هو خير في صالح وجوده. فلقد صنع الإنسان خلال تطوره عشرات الآلهة أخضع نفسه لهم وتوارث الأبناء القناعة عن آبائهم بقدراتهم ووجوب التمسك بتعظيمهم خشية بأسهم. فكانت مهمة الرسل تقتصر على تصحيح المسار في الإدراك الإنساني وتعميم

المفهوم السليم وتعريف المخلوق بالمرجع الأسمى الحقيقي الذي هو صاحب الفعل. وجاءت الأديان السماوية فيما نعلم بعد أن توصل الفكر الإنساني إلى تلخيص الآلهة كلهم في قدرتين رئيسيتين أو مصدرين أساسيين هما الخير والشر. وابتداء من تلك النقطة الهامة الحساسة في تاريخ البشرية، أصبح التعريف بالأصح والأفضل ضرورة حتمية. فالشر إذا ما اتخذ صفة الألوهية والسمو حصل على صفة القدسية، والإنسان لا يحارب ما كان مقدساً، بل يبجله ويمجده ولا يجد في نفسه الاستعداد والقدرة على محاربة الشر بل سيخضع له ويسترضيه وهذا هو بيت القصيد.

لقد جمع الإنسان في المرحلة الأخيرة من تطوره الفكري كافة الظواهر الطبيعية وربطها بمصدرين اثنين وفقاً لتأثيرها فيه. فلا بدّ وأن يخاطب الخالق عقل الإنسان الواعي المتفهم ليدله على الطريق الأقوم وليزيح عن سبيله ما تراكم من معوقات لمعرفة الحقيقة.

لكن ما يستعصي على الفهم كذلك هو إقحام اسم آدم في هذا السياق وظهور شخصية رئيسية جديدة هي زوجته التي أغفلت تسميتها، تشاركه في مسؤولية الحدث.

لتكن هذه النقطة محور السؤال الثالث المطروح الذي سنجد له جواباً مقنعاً في هذا البحث.

وبالانتظار، أرأيت حكيماً يعظ قوماً من المتطلعين المتعطشين إلى الأفضل فيحذرهم مغبة الخطأ مستشهداً بواقعة سبقت ارتكب بطلها خطأ يشبه الخطأ المنظور في موضوع الوعظ، فخرج عن نصح الناصحين واتبع هواه متجاهلاً كل تحذير، ففقد مكانته وسلطانه وسعادته وحسن ختامه. أرأيت إذ يعظ مثل هذا الحكيم، هل يقاطعه أحد السامعين مطالباً بإيضاحات حول شخصية ذلك الرعن الطائش الذي خسر كل شيء بسبب عدم تبصره، أم يعتبر السامعون القصة في مجموعها عظة وعبرة وكأنها أحد أصداء الماضي السحيق؟

لكنني لن أتذرع بهذا التعليل لأغفل معطيات هذه الآيات البينات بل سأرجئ مناقشتها لأنتقل إلى الموضوع الثالث الذي ورد فيه ذكر هذه الواقعة لأنني أرى شرحها يتطلب الاستشهاد بما سبقها وما يليها. ومن الخير أن نجمع كل ما ورد ذكر هذه الواقعة فيه لنبحث الأمر كواقعة واحدة رغم بعض التفاصيل التي وردت في موضع وأغفلت في موضع آخر. بذلك سنجمع كل ما قيل عن الواقعة ونحلله كحدث واحد ترتبط كل تفاصيله ببعضها لتشكل كلاًّ لا يتجزأ.

ولقد ورد ذكر هذه الواقعة في سورة «طه» وهي الخامسة والأربعون حسب تسلسل النزول وأوردت اسم آدم في آيات معدودات ابتداء من الآية الخامسة عشرة بعد المائة:

﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما** ﴾ ١١٥ .
﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾ ١١٦ .
﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ ١١٧ .
﴿ إن لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ ١١٨ .
﴿ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ ١١٩ .
﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ ١٢٠ .
﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ﴾ ١٢١ .
﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ ١٢٢ .
﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي لا يضل ولا يشقى ﴾ ١٢٣ .
﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ١٢٤ .

ألا ترى معي أن اللهجة والأسلوب هنا لا يختلفان عنهما في السورة السابقة . إنها إيجاز لواقعة . لكنه إيجاز يحمل معلومات جديدة مفاجئة . فلنناقش النص بالقدر المتاح .

إن فعل « عهد » كما يقول أساطين اللغة حافل بالعديد من المعاني ، بين الحقيقي والمجازي والحسّي والمعنوي . لكنه في هذا السياق يعني إئتمن أو وثق . ونحن نقول : لقد عهدنا إلى فلان بإدارة أموال اليتامى أي كلفناه بإدارتها ثقة منا به . والعهدة في لغتنا المتداولة تعني ما ائتمن الإنسان عليه .

وعلى ذلك يكون مفهوم الآية الأولى أن الله وثق بآدم لكنه كان ضعيف الإرادة فلم يكن عند حسن الظن ، وهو قول عجيب يلفت الانتباه . أيخفى على الخالق العظيم مثل هذا الأمر وهو العليم الحكيم الذي يعلم السر وما يُخفى ؟

إن « العزم » في اللغة هو عقد النية على فعل شيء ما نقول عزمنا على السفر أي قررنا أو انتوينا . ويمكن حمل هذه الكلمة كذلك على معنى الجدية في الفعل والقوة والجلد فنقول : قابلنا التحدي بعزم وإصرار ! ومن هنا يتلطف المعنى بعض الشيء فيصبح مدلول الآية : إننا ائتمنا آدم على سلوك لكنه لم يكن على مستوى المسؤولية فضعف وغوى .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا السياق قد جاء بعد آيتين في معرض خطاب يوجهه الخالق إلى رسوله وهما :

﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدث لهم ذكراً﴾ ١١٣ طه .

﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾ ١١٤ طه .

إذا ربطنا هاتين الآيتين بالسياق الذي تلاهما نخرج بنتيجة تؤكد أن إيراد الواقعة كلها ليس إلا خطاباً إلى الرسول وتوصية له بما عليه أن يفعل ، وأن حكاية آدم الموجزة ليست إلا استشهاداً ليتنبه الرسول إلى طبيعة الناس الذين بُعث لنشر الدعوة بينهم ، وكأنه يقول : ولقد حذرنا آدم من قبل لكنه كان ضعيف العزيمة . فبرغم رفض إبليس السجود له كما فعل الملائكة الآخرون وبرغم تحذيرنا المسبق له بأنه عدو له ولزوجته وأنه سيعمل على إخراجهما من الجنة ، برغم كل هذا ، استجاب لإغرائه وإغوائه . فلتكن هذه عبرة لك أيها الرسول ولتعلم أن من تبشر فيهم هم سلالة آدم ذاك الذي أخرجه إبليس من جنة كان لن يجوع فيها ولا يعرى ولن يظمأ أو يشعر بلسعات الحرارة . ولقد منحته فرصة جديدة لاختباره فإن اهتبلها وأحسن السلوك ، أثبتُه وغفرت ذنبه وإن استمر على شططه عاقبته بما يستحق . فذكرهم بهذا الأمر ليتعظوا قبل فوات الأوان .

هذا هو مجمل الخطاب الذي وجهه الخالق لرسوله لينقله للناس أورد فيه حكاية آدم للعبرة .

ففي نص سورة « الأعراف » التي سبقت ، كان الأمر محصوراً بين الخالق وملائكته في الملأ الأعلى . أما هنا فإننا نلمس حضوراً مادياً لآدم بدلالة الآية :

﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ ١١٧ .

وأن يغويه الشيطان في النص السابق أمر محتمل بل ومقبول أيضاً لأنه لم يشهد عصيان إبليس ولم يسمع وعيده . أما هنا ، فقد حذره علانية وبعبارة صريحة فبات الأمر مختلفاً ، يشهد بقدرة إبليس الفائقة على الغواية رغم معرفة الإنسان لمراميه وغاياته كما يشهد بضعف الإنسان ــ آدم ــ أمام الإغراء وافتقاره إلى الإرادة والتبصر اللازمين لاتخاذ القرار الصحيح .

وفي سورة « الأعراف » ورد ذكر موقف إبليس بشكل وافٍ وجامع في حين جاء هنا كقضية معروفة لا حاجة إلى إعادة ذكرها بتفاصيلها .

وفي سورة « الأعراف » كان الضمير الذي استعمل في أمر الهبوط بصيغة الجمع أما هنا فقد جاء بصيغة المثنى وفي هذا فصاحة وبيان وإيضاح مفيد .

لقد أمر الخالق الشيطان أن يهبط مع آدم وزوجه من تلك الجنة إلى رحاب الأرض الواسعة . ولكي لا يذهب الظن ببعض الناس إلى الاعتقاد بأن الشيطان أو إبليس قد تحول في هذا الهبوط إلى مخلوق مجسد متجاوب مع طبيعة الأرض ، عمد الخالق إلى التأكيد ببقاء كل نوع على حاله وطبيعته التي خلق عليها ، فكان آدم وزوجه رمز الطبيعة المجسدة وإبليس وذريته رمز الطبيعة التي لا تقع تحت الحسّ فجاء بالضمير مثنى مشيراً إلى نوعيتين مختلفتين من المخلوقات ستتلازمان على الأرض كل في حدود تكوينها وستكون الحرب سجالاً بينهما إلى حين .

لقد استعملت صيغة المثنى في هذا المضمار للتمييز بين الطبائع والأنواع في أكثر من موضع في القرآن منها على سبيل المثال قوله في آية « الكرسي » :

﴿وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يَؤُدُهُ حفظهما وهو العلي العظيم﴾

وبذلك أوضح أن لكل من الأرض والسماوات طبيعة مختلفة ونوعية مستقلة . ولو لم يكن الغرض من التثنية هو التمييز لقال « ولا يؤده حفظها » لكنه اعتبر السماوات نوعاً معيناً والأرض نوعاً آخر مختلفاً فجمع بين النوعين بالتثنية . والمثال الثاني يأتي في قوله :

﴿النجم والشجر يسجدان﴾ ٦ الرحمن .

لبيان اختلاف النوع بين كل ما ينبت على الأرض سواء كان بجذع أو زاحف ، والنبات الزاحف هنا هو النجم وهو اسم نوع .

كذلك زادت وقائع هذا النص على ما سبق بأن الخالق اجتبى آدم بعد غوايته فتاب عليه ، وهذا لم يرد صراحة من قبل . لقد أخرجه من الجنة التي كان سيعيش فيها دون كدح وعناء إلى رحاب الأرض يضرب فيها ويعمل وليستنفد كل طاقاته وقدرة إبداعه ليذلل ما يعترضه من صعاب لكي يعيش ويبقى .

ولم يذكر الله شيئاً في هذا النص حول نشأة آدم هذا وزوجه مما قد يدعو إلى الظن أن آدم هو أول إنسان خُلق خصوصاً وأن الربط بين ما جاء في السورة الأولى وما جاء في هذه قد خلق لوناً من التشوش في فكر الإنسان العادي . فالخالق العظيم قال في السورة الأولى إنه خالق بشراً من طين لكنه في السورتين التاليتين يحصر الأمر فيمن أطلق عليه اسم آدم وجمعه كذلك مع زوجه . وكان الخلاف في بادئ الأمر أن إبليس رفض السجود لذلك البشر المخلوق من طين . أما هنا فإن رفضه بات محصوراً بالسجود لآدم الجديد . فهل نعتبر كلمة « بشر » التي وردت في السورة الأولى تدل على مفرد لا على اسم نوع ما دامت الأسماء تطلق على شخص لتميزه عن آخر أم ماذا ؟

أضف إلى كل ما سبق تهديد الخالق بحشر من يتبع أهواء الشيطان أعمى بعد أن كان في حياته بصيراً . وهنا شرح الخالق العظيم هذا التصرف في آيتين تاليتين :

﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ ١٢٥ .

﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴾ ١٢٦ .

ثم يختم القول في الآية التالية فيقول :

﴿ وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ ١٢٧ طه .

لكن ما هو أكثر إثارة للاستغراب في هذا النص هو أن يشير الخالق إلى آدم أن يقيم في تلك الجنة مع زوجه شريطة أن لا يقربا تلك الشجرة . ويرى المسيحيون أن تلك الشجرة قُصد بها الجنس وهو ما يطلقون عليه اسم الجريمة البدئية أو الأصلية . والحديث عن سوءاتهما التي ظهرت بعد أن تذوقا تلك الثمرة وما فعلاه ليستراها يوحي بفكرة مماثلة إذا أخذنا الأمر على صورته السطحية . لكن السؤال المحيّر الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو : « كيف يجمع الله بين آدم وزوجته في مكان واحد ويمنعه من ممارسة الجنس معها رغم أنها زوجة له . أكان يتوقع ألّا يكون على هذه الأرض سواهما ، أي ذكر وأنثى فقط لا يمارسان ما أنشئا ليقوما به ، بينما تبقى الأرض على سعتها لا أثر لنوع البشر فيها ؟ » سؤال وجيه ولا ريب . فالخالق الكلي العلم والقدرة كان قادراً على أن يخلقه دون سوءات وكذلك تلك الزوجة . فهل كان ذلك مجرد اختبار لإرادة هذا المخلوق وميله عبر عنه سبحانه في الآية الأولى بقوله :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾ ١١٥ طه .

وإذا كان كذلك فهل كان الخالق العظيم قاصر الفكر بحيث يجهل حتمية هذا الأمر ؟ حاشاه سبحانه جلّ وعلا .

لكن آخر ملاحظة على هذا السياق هي بيان الخالق لآدم وهو يخرجه من تلك الجنة بأن مصيره متوقف على سلوكه المقبل وأنه سينزل على الإنسان نظاماً من لدنه ليعمل به فإذا استجاب نجا وإذا أغفل أو استعصى فسيحشر أعمى .

ولكي نجد أجوبة عن كل هذه التساؤلات لا بدّ أن نبدأ أولاً بتعريف آدم هذا وكيف جاء في هذا النص دون تمهيد أو سابق إعلام .

أظن أن الجواب سيستقيم في حدود الزمان والمكان . فالقرآن كنظام ودستور ، أنزل على الناس بعد دينين سبقاه إلى توعية البشر ، وهذا يعني أن النص يبحث في واقع معاصر للنزول . هذا عن الزمان . أما عن المكان فإنه كان حافلاً بأنصار الدينين السابقين إضافة إلى

الوثنيين . واسم آدم تردد من قبل وشاع فيهما . وإلا ، من أين جئنا باسم حواء نطلقه على النساء رغم أنه لم يرد قط في قرآننا ، ونربطه بآدم باعتبار أنه اسم زوجه .

إنه اسم مألوف دُلل به على الخليقة الأولى ، عرفه الناس من خلال الدينين السابقين على الإسلام فراج استعماله وشاع .

ولقد ذهب الفقهاء المسلمون إلى وضع آدم هذا على رأس قائمة الأنبياء وما هو بنبي ولا رسول . فالرسول يُبعث إلى أمة أو شعب وإذا كان آدم أول من خُلق فكيف تقوم هذه الصفة ؟ والرسول عادة يتقيد برسالة ربه الذي أرسله فيبلغها ولا يحيد عنها ويكون خير قدوة للمقتدين . بينما بدأ آدم وجوده ـــ حسب المعنى السطحي للنص ـــ بعصيان أمر الخالق والاستجابة لوسوسة الشيطان . وأول جريمة قتل عُرِّف بها الإنسان بواسطة المراجع الدينية ارتكبها ابن هذا النبي أو الرسول الذي قتل أخاه بدافع الغيرة والحسد .

أما الملاحظات الأخرى فسنرجئ بحثها وتحليلها حتى نفرغ من دراسة النصين الباقيين اللذين طرقا موضوع التمرد ، أحدهما في سورة « الحجر » والثاني وهو الأخير في سورة « البقرة » .

أفردت سورة « الحجر » وهي الرابعة والخمسون بترتيب النزول ست عشرة آية لسرد واقعة التمرد بدءاً من الآية الثامنة والعشرين :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ﴾ ٢٨ .
﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ٢٩ .
﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ ٣٠ .
﴿ إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين ﴾ ٣١ .
﴿ قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾ ٣٢ .
﴿ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ ٣٣ .
﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم ﴾ ٣٤ .
﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ ٣٥ .
﴿ قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون ﴾ ٣٦ .
﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ ٣٧ .
﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ ٣٨ .
﴿ قال رب بما أغويتني لأزينّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ ٣٩ .

﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ٤٠ .
﴿قال هذا صراط عليّ مستقيم﴾ ٤١ .
﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ ٤٢ .
﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ ٤٣ .

نلاحظ هنا توافق النص مع ما سبقه في سورة «ص» التي جاء فيها أول ذكر لهذه الحادثة ، باستثناء بعض العبارات التي لا تغير شيئاً من روح الواقعة وأبعادها . فالصلصال هو ما جف من الطين قبل أن تصيبه نار والحمأ هو الطين الأسود . فالقول كله لا يخرج عن نطاق الطين .

والخلاف اليسير هو أن إبليس حدد في التماسه الوقت الذي يريد أن يبقيه الله حيا خلاله بقوله :

﴿قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون﴾
بينما ورد هذا التحديد في النص الأول على لسان الخالق .

وليس في هذا خلاف يستوقف الانتباه لأن إبليس كان ولا بدّ على علم مسبق ــ كما سبق لنا القول ــ بأن هذه المخلوقات الجديدة آيلة إلى الفناء خلال وقت محدد بسبب البيئة التي تعيش فيها وأن الله لم يخلقها اعتباطاً لتنعم بالوجود وتخلد فيه دون سبب أو مبرر . فلكل مخلوق مهمة تتمم حركة التكامل في الوجود .

لكن السؤال الوجيه حقاً هو : كيف عرف إبليس أن هؤلاء البشر سيحشرون مجدداً في يوم معلوم . أما أن ينفعلوا بمادة الأرض ويصيروا إلى فناء فأمر مدرك ومفهوم . لكن خلقهم مجدداً بعد فنائهم أمر له ما وراءه .

ففي النص الأول في سورة «ص» كان قول الخالق محصوراً في ﴿يوم الوقت المعلوم﴾ وهذا يعني اليوم الذي حُدّد لنهاية الحياة على الأرض وليس فيه ذكر لإعادة بعث الفانين . فالحشر إذاً معلومة جديدة .

لكنه سؤال يخفف من حدته قولنا إنه كرره في سورة «ص» من قبل وإن يوم الوقت المعلوم ليس إلا تعبيراً عن المعنى نفسه واصطلاحاً متعارفاً عليه يؤدي إلى هذا المفهوم نفسه .

ولكن ، لِمَ يحشرون إذا كان وجودهم مجرد خلق فنمو ففناء؟ هل سيضطلعون بأعباء ومهام معينة ثم يسألون بعد ذلك عما فعلوا فإما الثواب وإما العقاب؟ إن هذا الاحتمال لا يمكن أن يقوم حقاً إلا إذا كان أولئك البشر يملكون حق الاختيار بين الصالح والطالح

وبالتالي بين التقيد بالتعليمات الصادرة إليهم أو عصيانها، وهو أمر غير وارد بين الملائكة الذين استقروا على الخير وعلى الطاعة دون تردد أو تساؤل ونأوا عن الشر، باستثناء إبليس الذي شذ عن هذا السلوك السائد وبعده الملكان المعاقبان في بابل، هاروت وماروت.

ثم إن إبليس يكرر هنا عبارته المثيرة في قوله «فبما أغويتني». إنه تصريح خطير أن يغوي الله مخلوقاً لفعل شيء يريده فإذا فعله وامتثل طرده من رحمته ولعنه وجعله من الصاغرين. ولو كانت تلك «سياسة» الخالق مع مخلوقاته لكان وجودهم مهزلة تستحق الرثاء وتستذرف الدموع!

وفعل «أغوى» ليس له أي معنى آخر يسمح بالتلاعب في تأويله للخروج من هذا المأزق المحير أو لإعطاء الخالق صفة العدل والرحمة لتغطي هذا الظلم الصارخ. فكيف يستقيم الأمر وكلمة «أغويتني» هذه تقف كالطود الشامخ، عقبة كأداء لا يمكن تخطيها. إن مثل هذا السلوك لم يسجل إلا في أحلك ظروف القهر والإذلال والاستعباد في تاريخ الإنسان، فكيف يُعزى إلى خالق الإنسان.

تعال نفكر لإيجاد التعليل ونحن الذين نؤمن بأن خالق الخلق بعيد جداً عن مفهوم الظلم لأننا لم نجد في الأسماء والصفات التي عرفناه بها صفة الظالم.

لنضرب مثلاً من واقعنا. المهندس الذي صمم السيارة التي نستقلها في تنقلاتنا. لقد ركّبها من أجزاء مختلفة، متكاملة ومتجانسة تسمح لها بالقدرة على الحركة إلى الأمام وإلى الوراء والانعطاف إلى اليمين واليسار والوقوف ثم العودة إلى الحركة بعد السكون. لكنه ربط هذه القدرات «بقانون» أساسي أقام عليه تصميمه بحيث يتفق مع طبيعة المكان والزمان فإذا تجاوز السائق السرعة المحددة في ذلك القانون وتعذر عليه الوقوف في الوقت المناسب أو أساء في حركة الانعطاف فتعرض للانقلاب أو الاصطدام بما كان في طريقه، أتراه يكيل اللوم على مصمم السيارة وصانعها؟ هل يستطيع أن يقاضي صانعها مع أن كل من يتعلم قيادتها يحاط علماً بالقانون الذي يحكم حركتها؟ لا ريب أن السائق هو المسؤول عما يقع له من أحداث إذا تجاوز حدود القانون وأغفل الأسس التي يتوجب عليه التقيد بها لضمان سلامته.

إن المصمم يعرف مسبقاً أن عدم التقيد بالقوانين الأساسية للجهاز الذي صنعه سيؤدي إلى حوادث وكوارث. لكننا لا نستطيع اتهامه بالتعمد في إيقاع الخطأ أو النتيجة المؤسية لأن الاستخفاف بالقواعد الأساسية هو السبب. أما هو، فإنه لم يرغم السائق على الخطأ.

هذا مثال أقدمه بمقتضيات لغتنا وحدود مدلولاتها التي تساعدنا على التفاهم . لنأخذه بفكرة أعم على قدر ما يسعفنا الخيال ولنحاول تطبيقه على واقعة إبليس . ها هو ذا يتصرف برعونة فيخطئ وهو عليم بأن المصمم قد أودع في تكوينه هذا الاحتمال ، فلئن أخذ به فإنما يأخذ في الحقيقة والواقع ببعض ما وضع المصمم في تكوينه .

ستقول لكن تعريفك للملائكة يؤكد أنهم لا يعصون لله أمراً وإذا كان إبليس ملكاً كما تقول فكيف يعصي ؟ لا تستشهد بحكاية هاروت وماروت لأنها وقعت في زمن معاصر في « بابل » حكاية إبليس وقعت عند خلق الإنسان وشتان بين العصرين . صحيح أنها تشهد بأن الملائكة قد يغوون . لكنها واقعة نادرة لم نطلع على تفاصيلها ، لم يفقد الملكان فيها اسميهما ولا صفتهما الملائكية .

أنت محق باعتراضك هذا . والمخرج الوحيد من هذا المأزق هو أن الجن كانوا يتدرجون ليصبحوا ملائكة حقيقيين لا يعصون لله أمراً وأنهم كانوا قيد الاختبار في الملأ الأعلى . لكن زعيمهم الذي عرفناه باسم إبليس ما استطاع أن يتغلب على نزوة الترفع التي كان عليه أن يتخلى عنها . لقد عرفتنا العقيدة المسيحية على الملائكة بأنهم خيّروا بين الشر والخير فاختاروا الفضيلة على الرذيلة ولم يأت تفصيل لتكوين الملائكة في الدستور الإسلامي لأن صفاتهم كانت معروفة . وهذا يدلل على أن إبليس فشل في الاختبار خلافاً للملائكة الآخرين لأنه كان من الجن المتدربين كما ألمحت الآية عند ذكر عصيانه .

هذا قول الآيات الأولى من سورة « الجن » وهي الثانية والسبعون من ترتيب النزول أي أنها جاءت قبل ذكر واقعة التمرد الأخيرة التي تتمم كل ما نقص من إيضاح في السور الأربعة التي شملت دقائق هذا الحدث .

من هنا نستنتج أن قوله « فبما أغويتني » ليس اتهاماً للخالق العظيم بتحريضه على فعل ما فعل بل اعتراف وإقرار بأن الغواية التي استجاب لها كانت أصلاً من مقومات تكوينه أودعها الخالق فيه لضرورة حرية التصرف والحركة لدى المخلوق . لكن الخالق لم يأمره بالاستجابة لها بل ترك له مجال الاختيار . والدليل الناطق بصحة هذا الاستنتاج هو أن الملائكة الآخرين الذين هم على مثل تكوينه ومادته يملكون ما يملك ، لم يتصرفوا مثل تصرفه بل استجابوا للأمر الصادر لهم مسترشدين بالأناة والتعقل والإرادة التي استطاعوا بها قتل النوازع .

لكن وعد إبليس أن يزين لهؤلاء البشر ليغوينهم أجمعين يختلف في مدلوله عما بدر منه ووقع له . لقد عصى باختياره دون أن يدفعه أحد إلى العصيان . لكنه رغم ذلك سيبذل كل ما في وسعه لحث البشر على سلوك سبيل الانحراف والغواية وشتان بين فعل الشيء بدافع ذاتي وبين فعله استجابة إلى تحريض أو إيحاء . والذي يقع ضحية لمخادع ، يقلب له المفاهيم ليدفعه دفعاً للوقوع في خطأ ما كان ليرتكبه لو لم يكن مخدوعاً ضحية خادع .

مع ذلك فإن الله لم يأبه بهذا الوعيد بل رد عليه بثقة واعتداد مؤكداً أنه لا سلطان له على عباده . فأية حصانة أعطاها الخالق لهؤلاء العباد ليقيهم بها شر الغواية ويمكنهم من مقاومة الإغراء العاتي من جانب مخلوق يتميز بقدرات وطاقات يصعب على الإنسان التصدي لها ومقاومتها .

ولنتوقف قليلاً عند كلمة عباد هذه لنعطيها المدلول الحقيقي الذي تعنيه وتحمله . فلقد ألفنا في حياتنا على إضفاء مفهوم معين على كلمة « العبد » . إنه ذلك الإنسان ، أياً كان لونه ، الذي يباع ويُشرى ككل السلع المتداولة ، لا يملك من أمر وجوده شيئاً ، يتصرف مالكه بكل مقدراته فيقتله إن شاء دون مساءلة ويبيعه أو يحرره ، يرهقه ويذله ويعتصر كل طاقاته دون أن يكون له حق الاعتراض ، وبإيجاز مجمل ، هو الأداة المتحركة على شكل الإنسان ، تفعل كل ما تؤمر به دون أن يكون لها أي حق من حقوق الإنسان .

هذا هو العبد في مفهومنا . وتبعاً لهذا المفهوم كان لكلمة العبد التي استخدمت في لغة الدين صفة المذلة وهي صفة ترفضها النفوس إذ لا فرق بأن يكون الإنسان عبداً لإنسان آخر أو لسلطة عليا فهو في كلا الحالين ملزم بأن يطأ كرامته وتستبيح قيمته .

لكن عَبَدَ في مفهوم الخالق تعني تبع . ونلاحظ أنها جمعت في القرآن على « عبيد » في خمسة مواضع في حين جمعت على « عباد » في نيف وخمسة وتسعين موضعاً .

فالخالق لا يريد أذلاء مرغمين يتبعونه صاغرين ! لذلك نقول إن عباد الله هم الذي يتبعونه وليس الأذلاء الذين يمتثلون صاغرين لأنهم لا يملكون بديلاً . وخير دليل على ذلك قوله في الآيتين الستين والواحدة والستين من سورة « يس » :
﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألَّا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ .

إن المعنى واضح لا يحتاج إلى بيان . إنه ينفي العبودية بمفهومنا القديم في عصر الرق . لقد عهد الله إلى بني آدم أن يتبعوا طريقه المستقيم الذي أرشدهم إليه وأن يتجنبوا اتباع

الشيطان لأنه سيقودهم إلى الهاوية . ونحن اليوم عندما نتبع مذهباً سياسياً لا نتحول إلى عبيد له لأن باستطاعتنا متى نشاء أن نتخلى عنه وأن ننقده إذا وجدنا فيه عيباً . وأن نتبع الخالق أمر إرادي غير قهري لا نقوم به إلا إذا آمنا بجلاله وعظمته وعدله وحكمته .

وأرى مناسباً في هذا المقام أن أرد على واحد من الأسئلة المعلقة : (لماذا أمر الله الملائكة أن يسجدوا إقراراً بتفوق الإنسان ؟) .

إن الملائكة ، حسب ما سبق من وصف وتعريف ، مخلوقات كوّنت من مادة واحدة هي النار أو النور وكلاهما واحد ، لا تنفعل إلا بمادة الخالق دون أن تفعل بها طبيعة المواد الموجودة في بيئتها ، لقد خلقوا ليبقوا ، لا يتناسلون لأنهم لا يهرمون ولا يموتون ، لا يحتاج تكوينهم إلى غذاء أو لباس ولا يتعرضون لأي عائق من عوائق عالمنا . ولم يأت ذكر ملائكة من الإناث كما لم يعرفوا بأنهم ذكور تبعاً للمواصفات التي نعنيها في عالمنا بهذا الوصف .

ثم إنهم غير مجسدين وبذلك باتوا محصنين ضد نزوات الجسدية ومتطلباتها . فهم لا يأكلون ولا يشربون لذلك فإنهم لا يزرعون ولا يصنعون ولا يتاجرون ولا يتنافسون ، أي أنهم لا يعملون في سبيل العيش والبقاء لذلك لا يشقون ولا ينصبون . لكل منهم دائرة محددة خلق فيها ليعمل ضمن حدودها .

وإذا انتفت النزوات والنوازع واللذات الجسدية باتت اللذة إيحاء وواقعاً معنوياً وبات الخيار محصوراً بين الطاعة والعصيان دون دافع .

أما الإنسان ، فإنه يولد مجسداً مكوّناً من مواد مختلفة عديدة تفعل وتنفعل وتتفاعل ، فلا يكاد يشب عن الطوق حتى يضطر أن يتعلم الكدح والعمل ليفي بأسباب وجوده الأولية ثم يتحول بعد ذلك إلى المحافظة على ذلك الوجود بالقدر الممكن باعتباره نوعاً مهدداً بالموت في كل لحظة .

وهذه الالتزامات المرهقة كلها تجعل نطاق الاختيار من السعة بحيث لا يقتصر على الخير والشر اللذين يفهمهما الملائكة بأنهما طاعة أو عصيان ، بل يتعدى ذلك إلى الاختيار بين الأسباب ومقارنتها بالقدرات والاحتياجات والظروف الفاعلة المؤثرة . والمثل الشائع عندنا يقول : « إذا أردت أن تحيّره فعليك أن تخيره » . فالإنسان إذاً يعيش في حيرة مؤلمة مرهقة .

أوليس الذي يستطيع أن يوفق وجوداً على هذا النحو المعقد الشائك مع نظام أساسي يضعه الخالق بأفضل من المتحرر من كل هذه الأعباء ؟

فالإنسان كادح مائت تتقاذفه تيارات مهلكة وتهدده نهايات مفجعة ، يعمل جاهداً على أن يوفق بين التزمات وجوده الشائكة وما عهد إليه الخالق أن يفعله . أما الملك ، فمخلوق مستقر مطمئن لا يهدده شيء في وجوده ، خالٍ من النزوات والنوازع والصبوات . فلئن اتبع كلاهما سبيل الخالق وتعاليمه ، تُرى أيهما هو الأفضل؟ هذا هو الجواب .

ولننتقل الآن إلى الموضوع الأخير والجامع الشامل الذي ورد فيه ذكر تمرد إبليس وضعف آدم. إنه سورة «البقرة» وهي السورة المدنية الأولى ــ التي نزلت في المدينة ــ والسابعة والثمانون حسب ترتيب النزول ، فيها إيضاح شامل لكل ما سبق . يبدأ ذكر هذه الواقعة اعتباراً من الآية الثلاثين وحتى التاسعة والثلاثين :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ ٣٠ .
﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ ٣١ .
﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ٣٢ .
﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ ٣٣ .
﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ ٣٤ .
﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ ٣٥ .
﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ ٣٦ .
﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ ٣٧ .
﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ٣٨ .
﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ٣٩ .

مفاجئات كثيرة غير متوقعة تأتي في هذا النص الذي يعتبر بحق مراجعة عامة وشاملة لحكاية إبليس . ولا بدّ وأن نضع في اعتبارنا أن هذه السورة كانت أول سورة مدنية ، أي أنها

أنزلت كلها في المدينة التي هاجر إليها النبي ﷺ، وهي أطول سور القرآن[3]. وكان الفكر الإسلامي حينذاك قد وجد تقبلاً وافياً عند العديد ممن عُرّفوا به، فجاءت وكأنها تعيد إلى الأذهان موجزاً لأهم ما سبق من تعاليم ونصوص أساسية وقواعد يقوم عليها ذلك الدين.

والمفاجأة الأولى قوله:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

ففي موضعين سابقين قال إنه عازم على خلق بشر من طين، وفي موضعين آخرين أورد القصة كواقعة يستشهد بها دون أن يشير إلى عزمه على الخلق، الأمر الذي يؤكد بأن الخلق قد تم وأنه لا مجال لإيراد أمر لا يحتمل الجدل والمناقشة. فهو قد عزم على خلق بشر من طين فخلقه لكنه عرّف ذلك البشر باسم آدم.

أما هنا، وبعد أن استقر في الأذهان فعل الخلق والرمز الذي عُرّف به الإنسان المخلوق، فاجأ جلالته الأذهان بأن الغاية من فعل الخلق كانت إقامة خليفة على الأرض وليس مجرد فعل يتعلق بالمشيئة الإلهية التي لا قبل لأحد على مناقشتها.

لكنه استعمل هنا كلمة خليفة. والخلف في لغتنا يأتي بعد سلف. وخليفة الملك ملك وخليفة الرئيس رئيس والوزير وزير. فالسلف إذاً كان إنساناً.

لكن الفقهاء يحاولون دحض هذا الاستنتاج حتى إن أحد «المتفقهين» قال لا فضّ فوه: إن الأرض كان يسكنها الجن ففسقوا فيها وسفكوا الدماء فأرسل الله ملائكته لحربهم فقاتلوهم وهزموهم وألجأوهم إلى رؤوس الجبال وقعور الوديان وعندئذ أراد الله أن يجعل على الأرض خليفة يعمرها.

ولقد نسي ذلك «الفقيه» أن يبيّن لنا نوع الأسلحة التي استعملها الجانبان وعدد الضحايا في تلك المعركة. كما نسي أن يطمئن نفوس المستمعين بالتأكيد بأن الملائكة بعد أن قهروا الجن وألجأوهم إلى رؤوس الجبال وقعور الوديان بنوا حولهم أسواراً من الفولاذ لا قبل للجن على تخطيها. هذا في قمم الجبال. أما في قعور الوديان فقد أقاموا فوقهم أسقفاً من الفولاذ لكي يظلوا سجناء حيث هم. ولولا هذا، ماذا تكون عليه فائدة هذه المعركة والجن مخلوقات لا يراها الإنسان ولا يشعر بها. فأي ضمان يؤكد عدم عودتهم إلى حيث كانوا بعد رحيل الملائكة المنتصرين وصعودهم إلى الملأ الأعلى؟

---

(٣) نزلت السورة كلها في المدينة باستثناء الآية الواحدة والثمانين بعد المائتين التي نزلت في مكة ونصها: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ ٢٨١.

ثم إن هذا «المتفقه» نسي آية واضحة تؤكد أن الخالق العظيم لا ينزل ملائكة لقتال من على الأرض. ففي سورة «يس» يقول تعالى بعد أن قتل المشركون ذلك الذي آمن بما جاء به الرسل:

﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ ٢٨، ٢٩.

فالله سبحانه لا يحتاج إلى الدخول في حرب وقتال مع الذين يقرر إفناءهم. ولماذا يرسل ملائكة للقتال وهو الذي:

﴿أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾!

إن مثل هذا الزعم لا يقبله عقل ويرفضه كل منطق. فسكان الأرض لا بدّ وأن يكونوا من طبيعتها وإلا لاستحال عليهم الحياة عليها. والجن حسب مدلول الكلمة لا يقعون تحت الحواس، وإفسادهم في الأرض على فرض صحة التعليل لا بدّ وأن يقوم فيما بينهم. وبقاؤهم في الوجود كما تؤكد سورة كاملة في قرآننا الكريم «سورة الجن» دليل على أن الخليفة الذي عناه الله في تلك الآية هو من الجن أنفسهم. فهل يستقيم هذا الزعم. كان على الملائكة الذين قاتلوهم على حد زعم ذلك الفقيه أن يجلوهم عن الأرض إلى كوكب آخر ليضمنوا عدم عودتهم إلى الإفساد في الأرض وسفك الدماء وإلا، فإن تلك المعركة تمت دون تحقيق الهدف المنشود وهو القضاء على الإفساد في الأرض وسفك الدماء. وبقاء الجن العصاة على حالهم ومعهم إبليس وزمرته دليل على أن الخالق، وهو الرحمن الرحيم، لم يرأف لحال الإنسان بل قذف به إلى بؤرة الشر والفساد مجرداً من كل سلاح يدفع به الأذى عن نفسه. وهذا ينفيه الواقع نفياً قاطعاً لأن كل ما في الأرض وعليها مسخر لخدمة الإنسان ولم نسمع قط أن ثروة أو محصولاً أو ثماراً ضاعت بفعل مجموعة من الجن أو أن قتالاً قد نشب بين إنس وجن. وسورة «الجن» التي جاءت في قرآننا تؤكد وجودهم لكنها لا تحدد مكان ذلك الوجود والفضاء حول الأرض فسيح لا متناه وهو غير السماء التي زينها الله بزينة الكواكب. وبين مجموعتنا الشمسية وأقرب الكواكب إليها ملايين السنين الضوئية. والسماء في التعريف الديني هي ما بعد تلك الكواكب وليس ما دونها.

فخليفة إذاً، تعني بوضوح إنساناً جديداً يحل محل إنسان انقرض أو لنقل تطور.

ولقد أطلق الله على رفيقة آدم في تلك الجنة اسم زوجة في كل المواضع التي ورد ذكر الواقعة فيها. والزوجة في عرفنا على الأرض هي الجانب الذي إذا ما اتحد بالزوج، تحقق الإنجاب بوصفها التربة الخصبة الصالحة والمواتية التي يودع فيها الحوين المنوي ليلقح البويضة

بما تحوي من مقومات. ولم يتناه إلى علمنا وجود زوجة لم يدخل «الجنس» في خواص تكوينها.

ووجود هذه الزوجة مع آدم جمعٌ بين ذكر وأنثى في شرعية مقرٍّ بها. وتعايش الذكر والأنثى كزوجين دون أن يكون العامل الجنسي طرفاً في تزاملهما أمر لا يحكمه وجوب ولا تدعو إليه ضرورة. ولو كانت الغاية الأساسية من وجود الزوجة قاصرة على تزويد آدم بمؤنس له في وحدته لجعلها الله «آدماً» آخر بدلاً من حواء ولما هدد إبليس في كل المواضع الذي ورد ذكر هذه الحادثة فيها بغوايتهم أجمعين ولوجب أن يكون ما خلق الله من البشر الأولين معصوماً من الموت ليظلوا أحياء حتى تقوم الساعة. فكيف يتعايش ذكر وأنثى بما أودع فيهما من غرائز ثم يطلب إليهما الامتناع عن الاستجابة لها.

فالشجرة إذاً لم تكن الجنس الذي لا يتم إعمار الكون بدونه، لأن الإنسان ليس ملكاً مخلوقاً من نار ونور دون جسد وغرائز بل هو مجموعة مواد ذات خواص فاعلة ومنفعلة، مختلفة ومتباينة، يفعل كل منها فعله في دائرة طبيعة تكوينه. ولا يمكن الزعم أن طريقة التكاثر التي كانت سائدة بعد بدء الخليقة ووجودها كانت مختلفة عما نراه اليوم في الإنسان والحيوان وحتى النبات أيضاً، وأن الإنسان قد درج على هذه الطريقة الجديدة بعد خطيئة آدم. لقد وجد الحيوان على الأرض قبل الإنسان بملايين السنين وكانت هذه وما تزال طريقة تكاثره.

لكنك ستقول إن نص الآيتين المتعلقتين بسوءات آدم وزوجه يؤكد أنهما ارتكبا الفعل الذي منعا عنه فبانت سوءاتهما، لذا راحا يخصفان عليهما من ورق الجنة.

إن قولك هذا لا ينفي الواقعة نفسها. فآدم وزوجه كانا في غابة «جنة» كثيفة الظلام تمنع أغصان الشجر المتشابكة الشمس من إدخال أشعتها لتنير المكان الذي يعيشان فيه لذلك لم يلق أيهما بالاً إلى عورته التي يسترها الشعر كما يستر كامل الجسد. فلما تجاوزا الشجرة التي كانت الحد الفاصل بين الأرض المكشوفة والغابة الكثيفة التي كانا فيها ظهرت عوراتهما لناظريهما فراحا يحاولان سترها. ولقد أكد الخالق العظيم ما أقصده في هذا التحليل إذ قال في الآية السادسة والعشرين من سورة «الأعراف»:

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذّكرون﴾

وهذا يؤكد أن الإنسان بدأ وجوده عارياً كسائر الحيوانات فلما تطور، امتاز عن الحيوان باللباس وستر العورة.

وهناك بعض من الفقهاء يزعم أن المراد بكلمة خليفة في تلك الآية هو رغبة الله في إيجاد من ينوب عنه على الأرض في تنفيذ إرادته وإجراء أحكامه في عمارة الكون. وهذا التفسير على ضعفه الشديد أرادوا به أن يثبتوا قولهم: بأن آدم كان أول مخلوق على الأرض.

لكن الوقائع كلها تثبت خطأ هذا الرأي. فالملك في عالمنا الأرضي إذا أراد أن يختار نائباً له أو سفيراً يمثله، دقق وفكر ودبر ومحص ليكون ذلك النائب أو الممثل من أهل الحصافة والحكمة، ذا شخصية قوية تفرض وجودها واحترامها حيثما تحل وتكون لعلمه بأن إساءة الاختيار ستعود على شخصه بعواقب سيئة أولها أن تحط من قيمته لدى الجهات التي سيمثله ذلك النائب فيها. وبكلمة موجزة فإنه إذا ما أساء الاختيار فإنما يسيئ لنفسه. فكيف الحال بالخالق العظيم الذي أفحم كل فكر بحكمته اللامتناهية وتنسيقه الذي لا يتطرق أي شك إليه. أيحتاج إلى من ينوب عنه على الأرض؟ ولو صح ذلك، كيف يقيم ذلك النائب التافه العزم الذي ما استطاع التقيد بما طلبه منه كخطوة أولى في المهمة التي سيقوم بها، وهو القادر على صنع ما تعجز العقول والأذهان عن إيجاد ثغرة فيه؟ هل كان مجرد اختبار أوليّ لسبر طاقة ذلك النائب؟ حاشا لله. قد يقع هذا بين البشر لكن الله كلي القدرة والعلم لا تخفاه خافية. ولو صح القول إنَّ العملية كانت اختباراً فشل فيه النائب المختار، أما كان طبيعياً ومنطقياً أن يختار سواه من نوع آخر وأن يهمل هذا الفاشل الضعيف؟ لماذا يتعب نفسه بإيفاد الرسل والأنبياء لصقل عقول هذه المخلوقات وتهذيبهم وتوجيههم إلى مجتمع فاضل.

لقد أحاط الله بكل شيء علماً ولا تخفى عليه خافية. ومن كان على هذا المستوى الذي لا يُضاهى لا يمكن أن يختار آدم لينوب عنه في الأرض لأنه مالك القدرة على فعل أي شيء. ولو أن آدم اختير لهذه الغاية كما يقول الفقهاء، وهو الذي خُدع فغوى واستجاب لغواية عدو سبق أن حذره الله منه ونبهه إلى كيده، رغم أنه كان في جنة لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، يأكل منها رغداً حيث شاء دون كد أو كدح أو عناء، ألا نتساءل لماذا استجاب لغواية عدوه. أتراه كان يطمع في أن يكون صاحب ملك لا يبلى ينافس الخالق في الوجود والخلق. ألم يكن في حال من الكمال لا يضاهيه حال؟ فكيف يختار الخالق العظيم نائباً سقط في الاختبار الأول بمجرد إيقاظ غريزة الجشع وشهوة السلطة في نفسه.

وقد تقول منبهاً إن الله قال في الآية الثانية والعشرين من سورة الأعراف:

﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ﴾

وأن هذا يعني أنهما قاما بالفعل الجنسي.

أقول إن فعل ذاق يعني الإحساس بالفم فيما يتعلق بالطعام فقط أما في المجالات الأخرى فإنه يدل على الإحساس العام فنقول ذاق آلام الخزي وذاق لذة التسلط الخ ... ولو كان الأمر يتعلق بالثمرة التي صورتها المفاهيم الدينية الأخرى بالتفاحة لجاء القول يحدد الثمرة وليس الشجرة . وذوق الشجرة وفقاً لمفهوم هذه الكلمة يعني الإحساس بالفارق الذي كان عليه في الغابة أو الجنة وما شعر به عندما خرج منها إلى الأرض الخالية بعد أن تجاوز تلك الشجرة التي كانت الحد الفاصل بين الحالتين . وإلا لوجب أن يسود القول بيننا : ذقنا شجرة كمثرى ، أو ذقنا شجرة مشمش وهكذا .

وهناك بعض المتفقهين يقول إن الله أقام آدم وزوجه في جنة من جنان السماء . وهذا قول مرفوض تماماً رغم أن مروجيه يستشهدون بما جاء في الآية :

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ﴾

والهبوط في رأيهم هو النزول من مكان مرتفع إلى مكان منخفض وهو دليل على أن آدم وزوجه كانا في السماء فلما عصيا الأمر طردا منها .

واستحالة صحة هذا القول تكمن في سببين وجيهين : الأول أن إبليس طرد من السماء بعد رفضه السجود فبات بعيداً في الأرض لعيناً رجيماً . فإذا استطاع التسلل إلى السماء بعد طرده ليذهب إلى آدم في جنته فيغويه لكانت السماء والملكوت الأعلى في حالة من الفوضى يرثى لها كمثل دولة على أرضنا تحرم على أعداء لها دخول أراضيها وتقيم محطات الرقابة على حدودها ، لكن الأعداء يتسللون إليها . وهذا الفعل يدلل على قوة الأعداء وضعف احتياطات الدولة . ولو فعل إبليس ذلك رغم طرده من الملكوت الأعلى لما خرج الأمر عن هذا المدلول .

والسبب الثاني هو أن كلمة « هبط » لا تعني دائماً النزول من أعلى إلى أسفل فإذا قلنا إن فلاناً هبط في مدينة كذا أو بلدة كذا فإن هذا لا يعني أنه كان في مكان مرتفع انحدر منه . ونحن نقول : نزل فلان ضيفاً على فلان ، ونعني بذلك أنه حلّ في ضيافته رغم ما في كلمة « نزل » من معنى الهبوط . لذا فإن قوله : اهبطوا منها جميعاً يعني غادروا مكانكم الحالي وتفرقوا في الأرض . وجميعاً هذه تعني مع الشياطين التي غررت بكم .

وهناك ملاحظة أخرى قيمة تستوجب التوقف عندها . إن واقعنا يؤكد أن البشر على الأرض على أربعة ألوان هي الأبيض والأصفر والأسود والأحمر . فهل كان هناك آدم وحواء لكل من هذه الألوان ؟ ملاحظة سنورد تحليلاً لها في هذا السياق .

إذاً، لقد كان آدم في غابة كثيفة مع زوجته فلما خرجا منها بانت لهما سوءاتهما فبدأ كل منهما يستر عورته بما حوله من أغصان الشجر وأوراقها. ومثل هذه الصورة ليست نادرة حتى الآن في مجاهل أفريقيا وجنوبي أمريكا.

لكن ملاحظة هامة جداً تستوقف اهتمامنا في هذه الآيات الأخيرة. فالملائكة كما نما إلينا وكما يشهد اعترافهم في تلك الآية:

﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾
لا يعرفون إلا ما تعلموه. وإذا كانت تلك حالهم فكيف جاءت إشارتهم في الآية الأولى إلى الإفساد في الأرض وسفك الدماء. ألم يقولوا للخالق العظيم:
﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾.
ألا يعني هذا أنهم شاهدوا تلك الواقعة وأحاطوا بها؟ ألا تعني إشارتهم تلك أن ذلك البشر الذي خلقه الله وسواه كان يفسد في الأرض ويسفك الدماء وأن إقامة خلفاء لهم سيعيد الأمر إلى ما كان عليه؟ أرأيت بمَ أجابهم الله؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون. أي أن هناك إجراء جديداً لا يعرفونه سيبرر تلك الرغبة الإلهية ويؤيدها.

لا ريب أن تلك الفصيلة من البشر لم تكن قد سُويتْ بعد وأمدت بما منّ به الخالق على الجيل الجديد من قدرة وإدراك ليحسن تسيير الأمور.

لقد أثبت العلم والواقع أن الله لم يخلق الإنسان على الصورة التي نراه عليها اليوم بل جعله يتطور. وآدم الذي أراد الله أن يجعله خليفة في الأرض هو الجيل الجديد الذي زُود بالتناسق في الشكل والصورة إضافة إلى القدرة والإدراك والوعي. ولئن أفسد السلف وسفك الدماء فلأنه كان بدائي الصورة والفهم أقرب في سلوكه إلى الوحوش الضارية منه إلى الإنسان السويّ. وقول الملائكة في هذا الصدد ليس اعتراضاً كما يُفهم من النص للوهلة الأولى وفقاً لواقعنا بل هو مجرد تساؤل لمعرفة ما خفي عن المتسائل.

إن هذه الجملة بمفهومنا تقول: «أتجعل من فسد في الأرض وسفك الدماء خليفة عليها ولا تجعله منا ونحن الذين نسبح بحمدك ونقدس لك». وقد يُفهم منها: «كيف تجعله خليفة وهو الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء». لكن أقرب معنى يجب أن نستخلصه من هذه العبارة في ملأ يختلف أصحابه في طبائعهم عن طبائعنا وسلوكنا هو: «نحن نسبح بحمدك ونقدس لك ولا نستطيع تبيان السبب الذي جعلك تقيم خليفة على الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء».

ولو رجعنا إلى واقعنا الحياتي لوجدنا أن هذا هو أقرب معنى إلى هذا الواقع. فلقد بدأ الإنسان التصرف كالوحوش الضارية لأنه كان على نحو ما مثلهم، عارياً يكسوه الشعر ليقيه تقلبات الطقس، يغمغم ويهمهم، يفترس ما يقوى عليه ويقتتل فيما بينه ككل ذكور الحيوان دفاعاً عن إناثهم. فلما أدرك ووعى، لم يحمله وعيه وإدراكه على تعديل سلوكه ذاك بل راح يفسد في الأرض ويسفك الدماء بأسلوب «حضاري متطور».

هذا بإيجاز موقف الملائكة عندما بلغهم الله ما يعتزم فعله. فهل نعتبر رد الخالق:

﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾

لوناً من الترفع الذي يلجأ إليه المتسلطون عادة في عالمنا إذا وجدوا أنفسهم في موقف مربك لا يجدون له مخرجاً بالمجادلة أم هو ما يفعله الحكماء المتعمقون حيال بسطاء الفكر والمعرفة الذين يطرحون أسئلة لا يستطيع إدراكهم الإحاطة بأبعاد الأجوبة فيقولون لهم سترون بأنفسكم ما يصعب على الأجوبة إدخاله في أذهانكم فنحن أكثر دراية بما نفعل.

لا ريب أن كلي القدرة والعظمة لا يمكن أن يلجأ إلى الترفع وهو العليم الحكيم. لكن قوله في الآية التالية:

﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾

يثير بعض التساؤل. لو قاله واحد في عالمنا لكان دلالة زاهية على انتصاره في مساءلة تعرض لها فاستطاع أن يحقق غايته فوقف مزهواً بنصره بين السائلين يتبجح بانتصاره.

لكن هذا الانفعال لا يستقيم مع عظمة الخالق وكماله المطلق لأنه لا يحتاج إلى التدليل على قدراته وإلمامه بكل شاردة وواردة. إنه منطق لا يستقيم ولا يرضي إدراكنا ولو قصُر. فالمسؤولون على أرضنا إذا أخطؤوا التصرف حاولوا إلباس خطئهم ثوب صواب يفتعلونه لإخفائه أو تبريره، فيرتبون حادثاً أو يفتعلون واقعة لتغطية خطئهم ودفع التهمة عنهم أو تحويل الخطأ إلى صواب. هذا سلوك شائع في عالمنا، فكيف يسمح فكرنا وإن سقم بشيء من هذا في الملأ الأعلى.

ومسألة الأسماء التي علمها لآدم تستوقف الانتباه. يقول جلّ جلاله:

﴿وعلّم آدم الأسماء كلها ثم **عرضهم** على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء **هؤلاء** إن كنتم صادقين﴾.

إن جمع الاسم في لغتنا أسماء فكان لزاماً وفق قواعد لغتنا أن يقول: ثم عرضها على الملائكة. فكيف يقول: «عرضهم» في هذا الكتاب الذي يعتبر المرجع الأول لقواعد لغتنا؟

ألا ترى معي غرابة مثل هذا الخطأ اللغوي؟ فليس في أي معجم معنى لكلمة «اسم» غير المعنى المألوف المتداول وهو تمييز الشيء المعرف به. ولم يخالف الفقهاء هذا المفهوم بل أقروه. لكنهم تجاهلوا الضمير في فعل عرض فلم يتوقفوا عنده ولم يحاولوا تأويله. فكيف عرضهم على الملائكة في حين كان الأصوب أن يقول: ثم عرضها.

التفسير الوحيد هو أن ما عرض على الملائكة لم يكن الكلمات ذات المعنى وإلا لعرفوا المسميات فور عرضها لأنها كائنة في الوجود، مرّ الملائكة عليها في مهامهم. فلا بدّ وأن يكون ما عرض على الملائكة كان أصحاب تلك الأسماء أنفسهم وهم من الأعلام. ومذكرٌ واحد في لغتنا يذكر الكلمات المؤنثة كلها التي ترد معه في جملة واحدة وكذلك الحال في «عَلَم» واحد في مجموعة من المسميات الأخرى يغلب في الصيغة فيجعل الجمع مذكراً أياً كان عدد أسماء الأشياء والمسميات غير العاقلة.

وآدم وزوجه من الأعلام وكانا معروفين من الملائكة لأنه سبق للخالق أن كرر ذكر هذا الاسم في أكثر من موضع. فمن هم الأعلام الجدد الذين عرضوا على الملائكة فأقروا بجهلهم أسماءهم؟ إن أسماء الحيوان والنبات والجماد تجمع في لغتنا بصيغة التأنيث. فمن هم الأعلام الذكور الذين تعلم آدم أسماءهم وأطلقها عليهم.

وملاحظة أخرى في سياق هذه الآية تستوجب الانتباه وهي قوله تعالى في ختام الآية: ﴿إن كنتم صادقين﴾.
فهل افترى الملائكة أم كذبوا فوجب أن يجابهم الله بهذا التحدي الصريح؟

إن مثل هذا السؤال يطرح في عالمنا من قبل محقق أمامه أكثر من قائل بادعاء مخالف، يود ترجيح جانب على آخر فيطلب من كل قائل برهاناً أو بينة على صحة ما يقول إن كان صادقاً فيه. هذا على أرضنا وفي بيئاتنا ومجتمعاتنا.

إن معنى هذه العبارة في مفهومنا هو: إن كنتم صادقين فيما زعمتم من أن الخليفة الذي عزمت على جعله في الأرض سيفسد فيها ويسفك الدماء، عليكم أن تنبؤوني بأسماء هؤلاء. فأية علاقة لمعرفة الأسماء في نفي التهمة أو إثباتها؟

ثم إن اعتراف الملائكة بجهل ما لا يعرفوه ولم يتعلموه أمر بديهي كما سبق لنا القول. فما هو البرهان الذي قدمه آدم للملائكة عندما أنبأهم بأسماء علمه الله تسمياتها أو العكس. هل يكفي أن يكرر آدم ما تعلم من أسماء لينفي أنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء.

أود هنا أن أنفي لبساً في هذه الآية يشاركني الفقهاء في نفيه بشكل قاطع. فالآية تقول:

﴿قال **يا آدم** أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم **قال** ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

اللبس فيها هو فعل «قال» الذي يأتي بعدما أنبأ آدم الملائكة بالأسماء إذ يذهب بعضهم إلى أن فاعل قال هذه هو آدم مؤيدين قولهم بحجتين الأولى لغوية والثانية منطقية.

الحجة الأولى هي أن آدم هو الذي أنبأهم بأسمائهم وأن ما تبع ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً به ولو كان الله هو القائل لوجب أن تأتي تلك العبارة الختامية في آية مستقلة أو أن يورد فيها ذكر القائل دفعاً لكل التباس. أما الإبقاء على تلك العبارة على صيغتها من حيث الأسلوب فإنه يسمح باعتبار آدم صاحب القول.

والحجة المنطقية هي أنه يرد في أي موضع قبل ذلك وبعده، تنويهاً أو تصريحاً، ما يشير إلى أن أي طرف من الأطراف بما فيهم إبليس قد أخذ على الله مأخذ الجهل وسوء التدبير لتأتي هذه العبارة رداً عليه. فقول الله: ألم أقل لكم إلى آخر الجملة لا ضرورة له على الإطلاق لأنه العلم بكل شيء بديهة مسلمة من البديهيات التي عرف الخالق بها والتي يقرها الخلق كله، لذا لا مجال لتأكيد هذه الحقيقة التي لم يتطرق لها أي شك أو التذكير بها. فالله هو العلم الكلي والمعرفة المطلقة والكمال الذي لا يماري أحد في صفاته من المؤمنين. فما هي الحاجة إلى التأكيد؟ هل لدى الملائكة أسرار يخفونها عن الخالق فيذكرهم بأنه يعلم ما يكتمون؟ إن جَعْل آدم فاعلاً لفعل «قال» أكثر قبولاً وتطابقاً مع غرور الإنسان وتبجحه في موقف أحسّ فيه بالتفوق أمام جمع من العاجزين عن محاكاته ومجاراته فيه. فليس في ملكوت السماوات نزوات ولا نزعات ولا خفايا ولا تنافس ولا أنانيات. وفي بيئة تنعدم فيها هذه الانفعالات لا يمكن وجود رغبات خاصة وأسرار تستدعي الإخفاء والتدليس.

والسبب الأول في خروج هذا الفريق من المفكرين والدارسين بهذا الرأي واعتماده أساساً لمذهب يدينون به هو مرورهم مر الكرام على موضوع الأسماء التي علمها الله لآدم على جهل الملائكة بها. لم يناقشوا هذه النقطة كما ناقشها ولم يحللوها كما نفعل بل أخذوها على ظاهر معناها. ولو حذونا حذوهم في الفكر لوجدنا حجتهم التي يتذرعون بها مقبولة ومنطقهم فيها سليم.

لكننا نقول إن الله الذي نؤمن به خالقٌ عظيمٌ لا مثل له ولا مثيل لا يرقى إلى مقامه شك ولا تحوم حول قدراته شبهة. فعله فوق كل حدس وتخمين، تقدس له الملائكة وتسبح

المخلوقات باسمه وهذه «الصورة» لا تحتاج إلى حجة أو تدليل واللبس فيها إن جاء لبس، يرجع إلى أننا نسيء الفهم وحسب. فلا بدّ أن نتعمق لنصل إلى المعنى الصحيح. ولكي ندلل على صحة هذا القول لا بدّ من مناقشة الملاحظات التي أثرناها بكثير من التأني والروية.

١ ــ لقد رويت هذه الواقعة في خمسة مواضع من القرآن تكرر ذكر طرد إبليس في أربعة منها ورد فيها ذكر خلق البشر.

٢ ــ ولقد دللنا على أن الملائكة ليسوا دمى متحركة كالإنسان الآلي في عالمنا يفعلون ما يؤمرون به لمجرد أنهم خلقوا من أجل ذلك بل هم في واقع الأمر مخلوقات في بيئة وطبيعة لا تتطلبان التجسيد، يدركون ويعقلون، وأن غياب كل النزوات عنهم راجع إلى تجردهم من الجسد المادي المماثل لجسدنا بما أدخل في تكوينه من مواد مختلفة ذات خواص مختلفة وفعل وانفعال مختلفين. فالملائكة لا يتزوجون لأنهم لا يولدون أطفالاً ثم يكبرون ويموتون لأن طبيعة مادتهم لا تتأثر بالجو الذي تقيم فيه باعتباره خالياً من كل المؤثرات. وإذا ما غابت النزوات ازداد المخلوق التصاقاً بالخالق ومعرفة بقدرته وإيماناً بفعله لأنه يعيش فيه ويرى الوجود كله من خلاله. والثقة المتناهية التي تودعها هذه المخلوقات في الخالق تجعلها أطوع من بنانه كما نصف الطاعة المطلقة في عالمنا. ولو قام أمر يثير تساؤلاً في «نفوسهم» فإنما هو تساؤل بقصد المعرفة بعيداً عن النقد والاعتراض. وعندما يعترض طفل على تصرف ما فإن اعتراضه لا يعني سوء فعل المتصرف بل جهل الطفل بموجبات ذلك التصرف.

والملائكة لا يسعون لكسب قوت يومهم أو بناء الأمكنة التي يأوون إليها أو معالجة مرض أصابهم. فطبيعتهم خالية من كل هذه المؤثرات والضرورات. إنهم على وجود لا يتحول لا يفعل فيهم الزمن ولا تؤثر فيهم الأعراض، لا يشيخون ولا يعجزون.

٣ ــ ولقد شذ إبليس عن هذه القاعدة الأساسية فلم يستعلم عن سبب الأمر بالاعتراف بتفوق هذا البشر بل حمل الأمر على محمل المناقشة «الدنيوية» وتعصب لرأيه واتخذ القرار وهو تصرف مخالف لقانون السماء.

ولئن سجد الملائكة دون اعتراض أو تساؤل فما ذلك إلا لواحد من السببين التاليين: أن يكونوا على ثقة متناهية مطلقة بما يفعل الخالق أو أن يكونوا قد أدركوا مدى العنت الذي سيلاقيه ذلك الإنسان في حياته على الأرض فاستنتجوا أنه إذا استقام رغم ذلك وتخطى كل تلك المعوقات فإنه ولا شك يستحق كل الإجلال والاحترام من جانبهم.

فالإنسان يبدأ وجوده من حوين وبويضة ثم يتكون في رحم أمه ويتشكل ثم يولد وما يكاد يشب عن الطوق حتى يلتزم بترتيب عيشه وأن يوفق بين تفاعلات أنسجة بنيته وبين البيئة المحيطة بها والتي يعيش فيها ثم أن يخوض معركة الحياة بين ليال وأصباح وبرد وحر ومرض ونقاهة وكدح وراحة وحزن وفرح واستقرار وقلق ونجاح وفشل وحرمان وترف ليصل بعد ذلك إلى أرذل العمر فيموت ويفنى ثم يحشر ويُسأل عما فعل. فإن أحسن اجتياز كل هذه المراحل من العوائق والمصاعب والعقبات كافأه الخالق بتحويله إلى مخلوق لا يفنى ولا يبلى ليعيش بجدارة واستحقاق لقاء ما بذل خلال حياته من قوة إرادة ومثابرة وجهد لكبت النزوات والرغبات والنوازع وتسخير وجوده لما فيه الخير والتجاوب مع تعاليم الخالق. إما إذا أساء وعاش مستهتراً ضيق الأفق محدود الرؤية مستهيناً بتعاليم الخالق فإنه سيرد إلى أسفل سافلين ولك أن تفسر هذه العبارة بما تشاء سواء اعتبرتها النار التي سيخلد فيها أو الوجود التافه الذي لا يعني شيئاً غير الإحساس بالدونية المطلقة.

ومن أجل هذا أمر الله الملائكة أن يقروا بتفوق هذا الإنسان واعترافاً بصحة هذا التقدير سجد الملائكة كلهم أجمعون.

ولكن كيف فاتت هذه الحقيقة عن إبليس. لقد استجاب لكبريائه فطرد من السماء وجاء يضيف عبئاً جديداً على كاهل الإنسان يعادل أعباءه كلها مجتمعة.

إن هذا العداء الذي سيستشري بين مخلوق عاجز وعدو أكثر قدرة وأقوى سلاحاً، عدو اطمأن إلى خلوده حتى يوم الدين، يعيث فساداً في الأرض حيث شاء وكيفما شاء فلا ينجو من عدائه حتى الأنبياء، لم يثره هذا المخلوق الجديد المسكين الذي ترهقه الأعباء وتثقله المسؤوليات الجسام، رغم أنه لم يلتمس من الله أن تعترف الملائكة بتفوقه ولم يطلب إليهم ذلك بشكل مباشر. فالأمر بالسجود صدر عمن لا يُعصى له أمر ولا يرد له حكم. فكيف يصح أن يتحمل مسؤولية ما لم يفعل؟

صحيح أن المأزق الذي وجد إبليس نفسه فيه والذي تسبب في طرده ولعنه يرجع إلى ذلك الإنسان الذي لولاه لما صدر ذلك الأمر ولما كان ذلك التمرد. لكن مثل إبليس في تركيز عدائه على الإنسان كمثل من عجز عن صيد الأسد فراح يقتل الضفادع.

٤ ــ والسبب الرابع والأخير الذي ينفي عزو القول إلى آدم هو أن آدم هذا لم يكن موجوداً خلافاً لما توحي به الكلمات التي صيغت بها تلك العبارة. ومن يزعم وجوده أمام

الملائكة بين يدي الخالق تبعاً لمعنى الكلمات السطحي يفترض أن يكون الله قد جمع الملائكة في مكان ما وأن يكون آدم هذا قد وقف أمامهم مجتمعين بحيث يرونه كلهم . ولما أعلنوا عجزهم عن معرفة معاني الأسماء التي علمها له الله أمره الخالق أن ينبئهم بها فراح يعرفهم بمفرداتها اسماً اسماً حتى إذا انتهى تبجح بقوله إنه يعرف غيب السماوات والأرض غير مبال بنتائج هذا القول ، بينما بقي الخالق ساكناً لم يعقب بل عاد إلى تحذيره من إبليس !

وعودة إلى موضوعنا الأساسي نقول إننا توصلنا إلى النتائج التالية :

١ ــ إن الملائكة خلق مختلف عن خلق الإنسان مجردون عن الانفعال .

٢ ــ إن إبليس كان من « القحة » بحيث عصى أمر الله ولم يعتذر عن خطئه بل ازداد في قحته بأن طلب من الخالق أن ينظره حتى قيام الساعة ليعمل على إفساد الإنسان الجديد الخلق فاستجاب الله له .

٣ ــ إن آدم الذي عُرِّف به البشر جاء بعد خلق من طبيعته سبقه إلى الوجود فعاث في الأرض فساداً بدليل معرفة الملائكة لما فعل .

٤ ــ إن الخالق نبّه آدم إلى عداء إبليس له ولزوجه وحذره من الوقوع في حبائله .

٥ ــ إنه جعل لآدم زوجة تقيم معه في الجنة التي اختارها له على الأرض وليس في السماء ليعيش فيها حياة لا عناء فيها ولا كدح ولا نصب .

٦ ــ إن الله علم آدم الأسماء كلها التي لم يتعلمها الملائكة من قبل واتخذ معرفة آدم لها حجة تؤكد مطلق علمه ومعرفته .

٧ ــ إن تلك الأسماء جُمعت بصيغة المذكر السالم .

٨ ــ إن آدم استجاب لوسوسة الشيطان رغم تحذير الخالق طمعاً بالخلود أو التحول إلى ملك .

٩ ــ إن الله غفر لآدم الخطأ لكنه أخرجه من تلك « الجنة » ليضرب في الأرض الواسعة التي ستستنفد كل طاقاته وجهده لتعطيه رزقاً وملاذاً .

١٠ ــ إن الله وافق على بقاء إبليس على طبيعته غير الحسية على الأرض في عالم البشر ليدخل مع آدم وذريته في معارك غير متكافئة .

هذا هو أهم ما يستوقف انتباهنا في موضوع التمرد هذا . فإذا أسأنا في التفسير المقبول لكثير من المتناقضات الصريحة في هذا السياق ، سدرنا في التخبط والبلبال وعجزنا عن التوفيق بينها وبين المعطيات العلمية المقبولة .

ولقد دللنا حتى الآن على أن آدم لم يكن أول من خلق من بني الإنسان بل كان خلفاً لسلف كان لا يزال في طور الإنسان البدائي الذي لا يحسن النطق بل يغمغم ويهمهم كما تفعل الحيوانات الأخرى. وأن رأي الفقهاء في أنه أول البشر أمر غير مقبول لا يقبله منطق ولا عقل ويدحضه كتابنا المقدس نفسه.

ودللنا كذلك على أن كلمة «خلق» تعني بدء الحياة وليس إيجاد الموجود على الصورة التي استقر عليها خلال أحقاب من التطور. لذا فإن قوله:

﴿إني خالق بشراً من طين﴾

يعني أنه سيجعل الطين مصدر الخلق وهذا يتفق مع رأي العلم مع أنه سبقه إلى إيراده بنيف وأربعة عشر قرناً.

فلا يعقل أن يكون الله قد خلق الإنسان البدائي على شكل إنسان اليوم وأنه زوده بثياب من الصوف تقيه البرد وأخرى من القطن والحرير تحميه من الحر. فالمخلوق الأول كان كسائر المخلوقات الأخرى مزوداً بما يقيه عاديات الطبيعة من شعر كثيف لا تزال بقاياه موجودة في أجسادنا وإن اختلفت من حيث الوفرة واللون. والعلم يتنبأ بأن يكون إنسان المستقبل أصلع الرأس قصير القامة بارز القذال ضامر العضلات لأنه سيعتمد على العقل اعتماداً كلياً فتنعدم الحاجة إلى ما لا لزوم لوجوده أو ضرورة لاستعماله.

واسم الفاعل من خلق «خالق» مع فعل التسوية والنفخ فيه من روح الخالق لا يعني أن هذه الأفعال كلها قد تمت على التوالي في فترة واحدة أو دقائق قليلة. والمعنى يجب أن يؤخذ هذا الكلام عليه هو: فإذا ما بلغ المرحلة التي قدرت لها فيها التسوية سويته وبعدها سأنفخ فيه من روحي «الإدراك والعقل» وعندئذ سيتحول إلى إنسان كامل عليكم أن تعترفوا بتفوقه نظراً للظروف التي ستحيط بوجوده.

فالقول إذاً لم يتم بعد وجود البشر بل قبل وجوده. وإقرار الملائكة بتفوق هذا المخلوق لم يحدث وآدم في جنته مع زوجه بل حدث قبل الخلق والتسوية والنفخ من الروح.

وقد يقول قائل لكن إبليس يقول: خلقتني من نار وخلقته من طين، أي أن فعل الخلق كان واقعاً. نقول: صحيح. ولكن لا تنس أن الله أمر بالسجود لآدم وليس للبشر الذي قال إنه خالقه من طين. والصورة هنا أشبه بملك يقول لأتباعه: أتيت بمن سأكلفه بمهمة معينة فإذا أنهى تدريبه ودراسته عليكم أن تقفوا له احتراماً عندما أستدعيه. وهذا التفسير ينطبق تماماً على قوله تعالى:

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ .
لقد أوجب الاحترام للبشر بعد مروره في طور التسوية ووصوله إلى طور الإدراك وإلا لقال اسجدوا لما خلقت من طين .

وليس غريباً أن يبدأ الإنسان وجوده يكسوه الشعر الكثيف فلاهوت الأديان كلها يصور الأنبياء والرسل بل والخالق نفسه بشعر ولحية وشارب مع أنه تجسيد لخيال عاش أصحابه منذ قرون قليلة وليس قبل المليار السادس من السنين التي تلت على الانفجار الأول وظهور الفقريات . ولو كانت أمواس الحلاقة معروفة حينذاك لما خرج علينا اليوم بعض السطحيين مؤكدين أن إطلاق اللحية سنّة لا بدّ أن تُتبع .

وأن يستبدل الخالق كلمة بشر بكلمة آدم أمر لا يمكن حدوثه بصورة عفوية إذا لم تقم علاقة وثيقة بين المسميين . فالبشر المسوّى المتطور هو آدم وهذه الكلمة تعني النوع وكل من كان على تلك الصورة كان « آدما » . صحيح أنه ليس في المعاجم تفسير لهذه الكلمة لكنها تجمع كلها على أنه الرجل الأول الذي عصى ربه فطرده من جنة الأرض مع زوجه حواء . ويتفق لاهوت الأديان مع هذا التعريف ويؤكد أنه اسم الإنسان الأول الذي خلقه الله من طين وأسكنه من زوجه في جنة الأرض . لكنه عصى ربه وأكل من ثمار الشجرة المحرمة فطرد منها وراح يهيم على وجهه فأعقب من الذكور والإناث عدداً كبيراً . هذا ما يقوله اللاهوت السابق على الإسلام .

ولو جسدنا هذا القول بمفهومنا الدنيوي لصورنا الله يجمع تراباً أو يأمر بجمعه ثم يأمر بالماء فيجبله ويحوله إلى طين متماسك ثم يبدأ في تشكيل الجسد قطعة قطعة وجهازاً إثر جهاز وعظمة بعد عظمة وشعرة بعد شعرة ، ثم ينفخ بما صنع فيصبح إنساناً كامل النضوج . لكنه يفاجأ بأن كمية الطين قد استُهلكت في صنع آدم ولم يبق ما يصنع به حواء فيعود إلى آدم ويأخذ اثنين من أضلاعه فيسويهما حواء . ولو أخذنا بهذه النسبة لوجب أن تكون حواء هذه جزءاً من مائة جزءاً على الأقل من بنية آدم . ولئن كان هناك من يصغي إلى مثل هذه الأقوال من قبل ويصدقها فإن ذلك راجع إل مستوى الوعي والإدراك لدى الإنسان كما سبق لي القول في بدعة القزويني عن الملائكة . ولكن أن نرى اليوم من يكرر هذه الأقوال ويؤكدها أمر في منتهى العجب .

صحيح أن إسم آدم قد يعني ذلك المخلوق الذي بات يمثل تلك المجموعة من البشر التي سويت ونفخ الله من روحه فيها فصارت تتكلم وتعي لكن هذا لا ينفي وجود البشر الأول الذي كان غاية في الهمجية كالحيوانات التي كانت حوله . ولو كان آدم هو الإنسان الفرد

لوجب أن نضع معادلة حسابية على طريقة المتواليات لنرى ما إذا كان ذكر وأنثى قادرين على إنجاب ذرية يبلغ تعدادها مليارات الأنفس بين ميت وحي في غضون خمسة آلاف سنة من سني الأرض كما تؤكد الأديان السابقة أو ما نطلق عليه اسم حقبة ما بعد التاريخ رغم تضاعف عدد السنين .

ورحم الله المعرّي الذي قال قبل أكثر من ألف سنة :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد ؟
خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد !

ولم يأت ذكر لحواء في مرجعنا الديني كما سبق لي القول بل جاءت مجرد زوجة أي أداة إخصاب وتربة صالحة لنمو البذور السليمة فيها ، مجرد أنثى اختصت بدور معين .

وقول إبليس :
﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾
يؤكد أن آدم لم يكن وحده على الأرض إنسان متكامل التكوين ولو كان الأمر خلافاً لذلك لجاء النص مختلفاً .

وكلمة « علّم » الذي نمر بها دون توقف تدعونا إلى التساؤل : كم من الوقت يستغرق تعليم الطفل الكلام ليحدد أسماء الأشكال وصفاتها وليعبر عما في نفسه . ولو عدنا إلى التزمت وقلنا إن الله قادر على أن يحقق في لحظة ما يعجز البشر عن تحقيقه في دهور ، لوجب أن نطرح سؤالاً جوهرياً حاسماً هو : لو كان الله يريد أن يتم ما وصل الإنسان إليه خلال دهور في لحظة واحدة فلماذا خلق ما نقرؤه في كتابنا المقدس عن الأقوام التي كفرت فأبيدت وعن الطوفان ولم يخلق إنسان اليوم العاقل السوي منذ بدء الخليقة ؟ لماذا جعل الإنسان يتدرج من الوحشية إلى البساطة الفكرية فيعبد الأوثان ويبعث إليه برسل إثر رسل ثم ينهي الأمر بالتعاليم المكتوبة ؟ لا ريب أنه خلق كل شيء بحيث يتناغم ويتناسق مع الطبيعة التي خلقه فيها وإلا لما كانت هناك حاجة إلى كل ما جاء في المراجع وأحداث التاريخ . إن نظام التدرج والتطور هو الذي جعله الخالق أساساً لهذا الوجود .

من هذا نقول إن آدم تعلم النطق بعد الهمهمة وبات يستر عورته بعد أن كان لا يعير هذا الأمر أي اهتمام . والشجرة التي نهي عنها ليست الجنس كما يخمن ويؤكد الكثيرون . أترى كان الخالق يريد أن يُعمر هذا العالم بذكر واحد اسمه آدم وأنثى اسمها حواء وأن يظلا في تلك

الجنة حتى تحين الساعة؟ لولا الجنس لما قام على هذه الأرض إنسان ولا حيوان وكل مخلوقات هذه الأرض من نبات وحيوان تتكاثر بالتزاوج واللقاح بعد خلقها الأول.

ولو صح القول إن الشجرة المحرمة هي الجنس لوجب الافتراض كما قلت بأن الله خلق ذكراً وأنثى على صورة مجسدة وأسكنهما جنة وارفة يجدان فيها كل ما يتوقان إليه دون كدح وعناء ليبقيا فيها دون سبب موجب ولانتفت فكرة البعث والنشور والحساب والعقاب ولبات قول الخالق لإبليس:

﴿إنك لمن المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾
لا مبرر له. وإذا قال قائل إن هذا الوضع تم بعد أن خالف آدم أمر ربه، لطلبنا إليه أن يعود إلى قراءة الآيات التي أوردت هذا الحدث والتي تؤكد أن إبليس رفض السجود لذلك البشر الذي خلقه الله قبل أن يأتي ذكر آدم، وأن عصيان آدم أمر ربه تم بعد رفض إبليس السجود لا قبل ذلك. ولو كانت غاية الله من خلق آدم وزوجه لا تتجاوز بقاءهما في تلك الجنة ما داما طيعين ملتزمين بأمر الله لانتفت كل البعديات التي وردت صراحة في الكتاب.

ثم هل نقول إن الله كان يجهل ما في نفس إبليس وما سيعتلج في نفس آدم وزوجه؟ رحماك يا إله العالمين!

لقد بات هذا المخلوق الذي سُوّي والذي نفخ الله فيه من روحه، بات قادراً على القيام بالمهمة التي رسمها الله له. فالشجرة التي أمره الله ألَّا يدنو منها هي تلك التي تنبت في النفس والتي يطلق عليها العلم اسم «معرفة الأنا» فالإنسان المجرد عن الأنانية متكافل متضامن مع أي إنسان آخر دون تحفظ أو غاية مبيتة. لكن ما إن يحل فيه «الأنا» ويتخذ مركز الصدارة حتى يأخذ في تفضيل نفسه على الآخرين فلا يقبل التساوي مع مثيله بل يتطلع إلى الامتياز والتفرد فيه. وهذا لا يتفق مع جنة الود والاتفاق والتضامن.

وبعبارة أكثر وضوحاً، لم يتجاوز الإنسان حدود تلك الشجرة إلا بعد أن تطلع كل فرد من المقيمين في تلك الجنة إلى مكان آخر غير تلك الجنة التي اكتظت بمن فيها بحيث بات الخصام والتنازع على ما فيها أمراً لا مفر منه، فراح كل فريق يتوجه إلى جهة يختارها بعد أن احتدم التنافس ومن هنا تفرق الشمل وتشعب الوجود وراح كل فريق يعمل على التفوق ونشأت الزعامة والتبعية والاستغلال و«الاستعمار» وكل الشرور.

وقد يقول قائل إن الآية تحدد الخطاب بصيغة المثنى. فالقول الأول ينص:

﴿اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾
وهذا يعني آدم وزوجه فقط.

ولنا أن نسأل القائل: وكيف تعلل ما جاء في الآية التالية ونصها:

﴿فأزلَّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾
ألا ترى أن المثنى قد بات جمعاً في أمر الهبوط وما سيكون بعده؟ أتزعم أن أمر الهبوط قد صدر لآدم وحواء وإبليس معهما فباتت الصيغة تستوجب الجمع؟ لو كنت ترى ذلك فكيف تفسر الآية الأخيرة ونصها:
﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾
أتقول أن الأمر صدر لآدم وزوجه وإبليس معهما وأن خياراً جديداً قد منح لابليس إذا تبع هدى الله الذي وعد بتنزيله؟

إن آدم هنا وفي كل موضع ورد هذا الاسم فيه هو اسم النوع أو لنقل ممثل ذلك النوع من المخلوقات الذين عرفناهم باسم البشر.

ولولا هذه الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه، أي الرجال والنساء، لظل بنو الإنسان في موقع واحد على هذه الأرض ينتشرون في دائرة مرسومة متكاملة ولكانت القارات التي تكونت بعد تشقق الأرض وتمزق كتلتها على الشكل الذي نراه اليوم، أمة واحدة يحكمها الإنسان المتعاون ولكانت لغة العالم واحدة من حيث المنشأ تختلف في بعض المسميات وفي طريقة النطق.

لكن الأنانية فرقت جماعات الإنسان على هذه الأرض وهو أمر لم يغب عن الخالق علمه فقال في الآية الثالثة عشرة من سورة «الحجرات»:

﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾
و «تعارفوا» هنا تعني «تتعارفوا».

فالهبوط من تلك الجنة التي بدأ التكاثر فيها هو الخروج من مركز الوجود المتضامن المتكافل إلى شتات التنازع والتنافس.

لكن المتزمتين يثابرون على اعتبار تلك الشجرة الجنس الذي منع آدم عن ممارسته استناداً إلى أن سوءاتهما لم تظهر إلا بعد أن أزلهما الشيطان عنها. ولقد سبق لي القول في تعليل هذه الذريعة: إن ظلال تلك الجنة الوارفة كانت السبب في حجب عوراتهما عن أنظارهما وأنهما عندما تجاوزا تلك الشجرة التي كانت الحد الفاصل بين تلك الجنة الظليلة بات الضوء قوياً بحيث رأيا ما لم يكن واضحاً تحجب الظلمة رؤيته. ثم إن تلك الأجزاء من جسميهما لم تخلق لطرح الفضلات الجسدية وحسب والحيوان كما نراه لا يغطي ما نسميه عورة. لكن الإنسان الذي تطور واجتاز المرحلة البدائية وبدأ ينتشر في هذا الوجود بات يستر هذه الأجزاء.

بيد أن سؤالاً وجيهاً يبقى مطروحاً يتطلب الرد. والسؤال هو: إذا كان هذا الجزء من جسم الإنسان قد خلق أصلاً للقيام بعملية التناسل إضافة إلى طرح النفايات، فلماذا يصدر إليهما الأمر بما لا يتفق والغاية التي خصص لها؟ ألا يكفي هذا لنفي فكرة الجنس التي منع الخالق الإنسان من ممارسته؟

إن الأعداد الفلكية من وحيد الخلية التي كونت أجساد المخلوقات الحية البدائية على سطح الأرض قد انتهى دورها في الوجود وإلا لرأينا اليوم مخلوقات لم تنجبها إناث من ذكور. أي أن القرد الأول الذي زعم «دارون»(٤) أن الإنسان سليله كان سيبقى حتى اليوم يزود الوجود ببني الإنسان ذوي الأشكال المختلفة عن دقائق جسم الإنسان المتطور. ولم نجد حتى اليوم قرداً من أية فصيلة من فصائل القرود المتعددة قد تحول إلى إنسان ناطق. وكتابنا المقدس أكد في أكثر من موضع وجوب التزاوج بين الذكر والأنثى لإنجاب النوع. لذا لا يمكن اعتبار تلك الشجرة على صورة ما أخذت عليه من مفهوم.

أما عن الأسماء التي علمها الله لآدم والتي كان الملائكة يجهلونها فأمر على جانب كبير من البساطة والوضوح ولعل سهولته وقربه من البديهية كان السبب في أن كثيراً من الناس لم يهتدوا إلى تفسيره.

---

(٤) شارل دارون Daruin عالم طبيعة وأحياء «بيولوجيا» بريطاني ١٨٠٩ — ١٨٨٢، حصل خلال جولة حول العالم ١٨٣١ — ١٨٣٦ على ملاحظات عديدة حول اختلاف الأنواع الأمر الذي جعله يتوجه إلى العقيدة الارتقائية التي باتت تسمى «الداروينية» والتي أوردها في كتابه الذي صدر عام ١٨٥٩ والذي يتحدث فيه عن أصول المخلوقات وتطورها بفعل الطبيعة.

فإذا كان الله قد جمع البشر تحت اسم آدم وترك زوجته دون اسم ، فكيف كان الأفراد سيتعارفون ويتنادون بعدما اجتازوا مرحلة البدائية إلى الإدراك والفهم ؟ وإلى من ينسب المواليد إذا كانوا دون أسماء وكان آباؤهم كلهم يعرفون باسم آدم ؟

من أين جئنا بالأسماء التي نطلقها على ذكورنا وإناثنا في كل زمان ومكان ، وتلك التي نطلقها على الأشياء لنميز بعضها عن بعض ؟

يقول علماء الإناسة «الأنتروبولوجيا» وهو العلم الذي يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته ، إن الكلمات جاءت من أصوات ذات طبقات معينة للدلالة على أشياء بعينها . فالإنسان الأبكم على سبيل المثال يصدر أصواتاً غير مفهومة يشفعها بإشارات محددة للدلالة على مفهوم معين . وهو يتفاهم مع أبكم مثله بهذه الطريقة بحيث لو جئنا باثنين من البكم وطرحنا عليهما سؤالاً موحداً لرد كل منهما بغمغمات ذات طبقات صوتية معينة مشفوعة بحركات ولكان ردهما متشابهاً إن لم نقل واحداً .

فالحركة إذاً تتوافق مع الفكرة ، فلماذا يختلف النطق إذاً ؟ إن كلمة خبز مثلاً ، وهي مادة أساسية يعتمد عليها البشر في حياته ، تختلف نطقاً من قوم إلى آخر باختلاف اللغات . إنها عيش أو خبز أو خَبيز بالعربية والسامية ، بَنْ Pain أو باني باللاتينية ومشتقاتها . بْرِدْ وبْروتْ Bread بالإنجليزية والجرمانية ، أَكْمَكْ بالتركية ــ المغولية ــ و « نان » بالكردية إلى آخر ما هناك من تسميات . فكيف اختلفت التسمية لمسمى واحد وأي أصوات هذه هي التي أدى صدورها من الأفواه إلى الاتفاق على مثل هذه الكلمات .

وما نراه ونقوله في الأشياء ينطبق كذلك على الأعلام . إنها أسماء متشابهة في المجتمع الواحد أو البيئة الواحدة لكنها مختلفة عما هي عليه في بيئات ومجتمعات أخرى .

ولو كنت تدعى أحمد وجاء بقربك رجل يملأ الدنيا صياحاً منادياً باسم حسين لما التفت إليه إلا لتبيان سبب صياحه ، مجرد استطلاع وحسب . فالاسم إذاً ضرورة ملحة لتكوين الشخصية المستقلة . ولو ظل البشر كله يعرف باسم آدم لانتشرت الفوضى وعمّ الضياع .

والإنسان الذي سبق آدم في طور النشوء كان بدائياً يتصرف بأسلوب حيواني بحت . والعلم الحديث والعلماء يؤيدون صحة هذا القول . فالأسود كلهم أسود والثعالب كلهم ثعالب وإن ميز العلم بعضها بأسماء مختلفة .

لكن الإنسان الحديث لا يمكن أن يعرف كله باسم آدم ولو كان الأمر كذلك لما سمعنا باسم هابيل وقابيل ونوح وعاد وثمود. إذاً، لقد كان الاسم ضرورة ليمتاز ذلك المخلوق بالشخصية المستقلة. والشخصية المستقلة لا يميزها في الدرجة الأولى غير الاسم. فإن يعلم الله آدم الأسماء كلها معناه أنه جعل الإنسان الذي خلقه وسواه يبلغ مرتبة الاستقلال الشخصي بتعريفه بأسماء تطلق على الأفراد وأخرى تطلق على الأشياء.

ولكن، ما علاقة هذه الأسماء بالملائكة وكيف تم عرض أصحابها عليهم. الرد في غاية البساطة. فكما أن الحوار جرى في الملأ الأعلى دون أن يكون الإنسان قائماً فيه، كذلك كان العرض. وإذا كان الإنسان لا يستطيع الصعود إلى الملأ الأعلى بجسده المادي لاستحالة توافق طبيعته معه فإن الملك على العكس يستطيع أن «يرى» من علٍ وأن «يسمع». ألم يقل الله لموسى في الآية السادسة والأربعين من سورة «طه»:

﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾.
فهل يظن إنسان على الأرض أن الله كان يمشي مع موسى وأخيه على الأرض خطوة خطوة وكتفاً بكتف؟

لقد بلغ الإنسان الطور الذي قدره الخالق له ليقوم بمهمة محددة على الأرض التي جعله يعمرها فإنه لا بدّ أن يمتاز عن المخلوقات الأخرى امتيازاً يتفق ومهمته فكانت الشخصية المستقلة المعرفة بالاسم، والإنسان البدائي الذي سبق وجوده كان يعرف كله باسم بشر أو بكلمة إنسان تماماً كما لا يزال الحيوان يحمل هذا الاسم وهذا محور الخلاف.

وظهور إنسان ناطق يعرف باسم مستقل ذي شخصية مستقلة كان أمراً يجهله الملائكة لأنهم ليسوا شركاء مع الله في القرار. لقد سبقت لهم رؤية هذه الأشكال وأحاطت بأسلوب تصرفها وسلوكها. ولكن أن يتحول أولئك المخلوقات إلى النطق والإدراك والتفرد بالشخصية، أمر كانوا يجهلونه بالطبع. لقد بات هؤلاء الجدد أناساً مختلفين تماماً عمن سبقوهم. وأن يُعرف كل باسم خاص أمر غير شائع في الملكوت الأعلى لانعدام الشخصية المستقلة فيه باستثناء الأسماء القليلة التي توارثها الإنسان في المراجع الدينية تطلق على بعض الملائكة لتمييزهم وفقاً للمهمة الموكولة إلى أي منهم لكي لا يختلط الأمر علينا. أما الإنسان فها هو ذا يحمل اسماً منذ بدء وجوده المدرك في طوره الرابع والأخير.

بقي أن نجد العلاقة بين تلك الأسماء التي علمها لآدم وبين قوله:
﴿ألم أقل لكم أني أعلم غيب السماوات والأرض ... تكتمون﴾

والغاية الصحيحة هي أن نوجدها لا أن نجدها . أإذا عرف كل إنسان باسمه كان ذلك دليلاً بيّناً على أن الله يعلم غيب السماوات والأرض ؟

بالطبع لا ، إذا اقتصر السؤال على هذا المعنى . لكن الأمر يصبح مختلفاً إذا ما جمعت التفاصيل والملابسات .

يتساءل الملائكة عما إذا كان الله سيجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء خليفة لمن سبق فيجيبهم الخالق بأنه يعلم ما لا يعلمون . ذلك أن الإنسان الذي عرفته الملائكة سفاكاً ومفسداً كان مخلوقاً لا يكاد يستقيم في مشيته يهمهم ولا يتكلم . يقتل من أجل الطعام والإناث كما تفعل معظم الحيوانات الثديية . القتل في شرعته أساس البقاء والوجود . لكن هذا المخلوق القميء المنفر انقرض وحل محله مخلوق آخر يشبهه في كثير ويختلف عنه في كثير .

وأن يعلن الله أنه جاعل في الأرض خليفة من أولئك البشر الذين خلقهم من طين معناه أنه سيتدخل بذاته في شؤون هذا الخلف لأنه لا يمكن أن يسمح بعودة ذلك النوع الذي أتلف كل شيء كما أتلف نفسه ، وهو الخالق العليم ، وتصريحه برغبته في معاودة الكرة دليل على أنه سيتدخل في الأمر ولن يدع الأمور على الأرض دون تنظيم جديد . ومثل ذلك المخلوق التافه الذي ملأ محيطه بالإفساد والتخريب والفوضى لا يستحق أن تتنازل الذات الإلهية للعناية به وبشؤونه وإلا لفعل ذلك بين المخلوقات الأخرى من الحيوانات التي تعيش على شاكلته .

وقوله إني جاعل في الأرض خليفة لا يعني خلقاً جديداً غير الذي كان عليها . وذلك الإنسان لا يزال موجوداً على نحو ما . فما حاجة الخالق إلى تحديد طبيعة ما سيفعل فيسميه بالخلافة إذا لم يكن ينوي تهيئة مقومات تلك الخلافة لذلك المخلوق .

هذا ما أثار دهشة الملائكة إذا ما جاز القول ودفعهم إلى الاستفسار : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ وهذا التساؤل لا يخرج عن القول : أتهتم أيها العلي العظيم بذاك الذي ملأ الأرض إفساداً ودماء مراقة ونحن هنا في عليائك آية في النظام والطاعة والخلق الحميد .

وهذا التساؤل ليس اعتراضاً لذا ردّ عليه الخالق بأنه يعلم ما لا يعلمون . أي أن ما سأفعله خارج عن نطاق علمكم فلا يدهشنكم البناء وسترون بأنفسكم ما سيكون .

فلما بلغ الإنسان الجديد مرحلة النطق والإدراك وتعلم ــ ابتكر ــ أسماء للأعلام والأشياء، عرض الخالق هذا الإنجاز على الملائكة وسألهم: أتعرفون أسماء هؤلاء؟ وطبيعي أن الغاية لم تكن محصورة في الأسماء نفسها بل بنطقها من قبل ذلك الإنسان والتنادي والتفاهم بمدلولاتها. ولما شهد الملائكة هذا الإنجاز المذهل، مخلوقات تتكلم على الأرض وتعقل ولم يبلغ سواها هذه المرحلة الهامة، قال لهم الخالق عبارته: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم.... وما تكتمون﴾. وهذه العبارة ليست تساؤلاً أو سؤالاً كما يبدو من صيغتها وليست إثباتاً لقدرته التي أحاط بها الشك، بل هي إثبات واقعة وكأنه يقول: أرأيتم كيف أنني أعلم ما لا تعلمون. فأنتم لم تتوقعوا أن أطور ذلك المخلوق السفاك المفسد الذي لم يكن يختلف في شيء عن بقية الحيوانات، فأجعله نوعاً على هذا المستوى قياساً إلى ما كان عليه سلفه. ها إنني قد أعددتهم ولسوف أعهد إليهم فيما بعد بما يجب أن يكون عليه الحال على الأرض وبذلك أكون قد حولت الوجود على هذا الكوكب إلى غاية مفيدة تخدم التكامل والتناسق في التكوين.

بقي إبليس ودوره في هذا السياق إبليس الذي طرد من الملأ الأعلى قبل أن يتطور الإنسان من بدائيته إلى مرحلته الأخيرة. ليس صحيحاً ما ذهب إليه بعض الفقهاء أن إبليس كان في مجلس الملائكة لما صدر الأمر بالسجود ولم يكن منهم فكان عليه أن يحذو حذوهم لأن الأمر الصادر للأعلى يشمل الأدنى.

إنه افتعال في التفسير لا يقبله منطق إذ أن مجلس الملائكة لا يمكن أن يضم غير الملائكة أو الذين تعتبر مستوياتهم متساوية معهم. وإلا، أرأيت ملكاً في حاشية وأتباع يستقبل ملكاً فيأمر وزراءه بأن يقدموا التحية للملك الزائر فيلتزم الأتباع والخدم بتنفيذ أمر الملك. أرأيت إن أمر وزراءه بالانحناء للملك الزائر انحنى كل من في المجلس؟

فإن يأمر الله ملائكته بالسجود لا يشمل إبليس إذا لم يكن منهم في حين أن الأمر يشمل رؤوس الملائكة المعروفة أسماؤهم وعامة الملائكة أجمعين. وقوله تعالى:

﴿أم كنت من العالين﴾

لا يعني وجود ملائكة عالين لم يشملهم الأمر وملائكة «أدنين» هم الذين عليهم الامتثال للأمر. بل المعنى: أتستكبر وتتعالى وتعتبر نفسك فوق مستوى الساجدين؟ والدليل على صحة هذا الرأي جواب إبليس نفسه إذ قال:

﴿أنا خير منه﴾

فالتعالي ليس مرتبة في هذا المجال بل هو نتيجة المقارنة بين الساجد والمسجود له، وما يقوله الفقهاء افتعال في التفسير حول هذه النقطة.

ولمَ يتمرد إبليس وهو يمثل أقلية تافهة إذا ما قيس مع أنصاره « ذريته » بالجمع الهائل من الملائكة الذين يعمرون الأكوان .

والله الخالق الذي يعلم غيب السماوات والأرض ويعلم ما يبدي الملائكة وما يكتمون ، أكان هذا الإله العظيم جاهلاً بما سيكون عليه موقف إبليس ؟

يقول الفقهاء إنها حكمة أرادها الله وهو عليم . فإذا كان عليماً وكان فعل إبليس حكمة أرادها كما يقولون فلمَ هذه « المسرحية » ؟ ألم يكن الأفضل أن يورد حكمته بالأسلوب السلس البسيط الذي استعمله في إيراد كل حكمه وتعاليمه ؟

سيكون الجواب مفاجأة مثيرة . وبانتظار الوصول إليه أذكّر بالقول المأثور : كلّ شيطانة تحت إبطه . وأضيف إن الأديان أنزلت في زمن بلغ فيه الإنسان حداً كافياً من الإدراك والتعقل . لكن علم النفس الذي نفسح له اليوم مجالاً واسعاً في بحثه وامتداده كان جزءاً مدموجاً بالميتافيزيقا التي ركز عليها الفلاسفة الأقدمون أبحاثهم ولم يصبح علماً مستقلاً محدد الأبعاد قائماً بذاته إلا في القرن الأخير . والإنسان الذي تبع الأديان كان غافلاً تماماً عن كل ما يدور في نفسه . لا يعرف له مبعثاً ولا مصدراً . ولا يزال الفقهاء يقسمون الأنفس إلى نفس لوامة ونفس أمارة بالسوء ونفس مطمئنة ولا يتقبلون أن تكون النفس الواحدة قادرة على أن تكون على هذه المستويات . لذا فإن الإنسان كان يرد كل شيء إلى الخالق لأنه منه وكل واقعة أو حدث كان ينسب إليه حتى القضاء والقدر الذي أساء بعضهم تعريفه وفهمه فنادوا بأن كل واقعة مفاجئة أو متوقعة إنما هي مقررة على الإنسان ومكتوبة في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق . وغالى هؤلاء الفقهاء في دعواهم فجعلوا الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى جزء من الإيمان بالله الخالق . وليتهم فسروا ما يقصدونه بهذا القول بحيث يشعر الإنسان بمسؤوليته عما يفعل . لكنهم اكتفوا بتلك العبارة فشتتوا الفكر الديني حتى إن كثيراً من المفكرين يتساءلون بحق لماذا يعاقبني الله على ما حدّد وقرر أن أفعله قبل أن أولد ؟

ولا بدّ من القول في هذه المناسبة إن كثيراً مما جاء في قرآننا الكريم وفُسّر على هذا النحو المقصود ، قد أصبح اليوم موضع تفسير جديد من جانب تلك القلة من الفقهاء المستنيرين بحيث أصبح يتفق مع العلم وعقلية العصر دون مساس بقدسية النص وقائله .

ولئن كان الفعل من الله فلا بدّ وأن يكون هناك فاعل آخر للأفعال التي لا يمكن أن تُعزى إلى الخالق العظيم .

ولما كان عهد المثنوية قد أفل ، فإن تفسير الشر بوجود إله واحد بات لا يحتمل أكثر من تفسير واحد هو أن الشر من فعل الله نفسه تماماً كما ذهب بعض الفقهاء خلال القرن الماضي والثلث الأول من القرن الحالي يعزون الخير والشر إلى الله تعالى ويروجون للقدرية التي شاعت أيام الأمويين وبعض الخلفاء العباسيين ليستكين الشعب فلا يعترض على ما يفعله الحاكم لأنه أمر من الله قدر له أن ينفذه .

لكن الله لا يمكن أن يكون شريراً . فالصفات التي عرّفه الفكر بها رغم قصور مدلول الكلمات كما سبق القول ، لم تشمل صفة الظلم . والشر ظلم ولا شك إلا إذا جاءنا بعضهم بتفسير آخر مختلف . ولما كان الشر موجوداً ولم يكن من الخالق فلا بدّ من وجود مصدر آخر له « يتصوره » الإنسان ويحدد أبعاده . وهذا المصدر الحسّي المصوَّر هو إبليس أو الشيطان .

إلا أننا اليوم بتنا نعلم بيقين وبثقة علمية أن الشر كله إنما يصدر عن أنفسنا وأن النزوات هي الدافع الأول والأخير له . فالنزوات إذاً هي إبليس .

إن النزوة هي مصدر الغرور والجشع والغيرة والحسد وكل ما يدفع الإنسان إلى تجاهل الحق والتوغل في طريق الباطل .

ولقد صورت العناء والعنت اللذين يقترنان بوجود الإنسان ابتداء من أول لحظات وجوده وحتى يوارى في التراب . والنزوة هي محاولة تحويل هذا العنت إلى راحة بأي سبيل .

ولا يعقل أن تكون الجنة التي أودع آدم فيها مع زوجه على الأرض ليأكلا منها رغداً حيث شاءا ، تحوي ثماراً تشبعهما دون أن تتحول في معدتيهما إلى ما تتخلف عنه النفايات من بول وغائط كما يزعم بعض الفقهاء باستثناء ثمار تلك الشجرة الملعونة مستشهدين بغذاء الجنين في رحم أمه الذي لا تفيض عنه مخلفات كما يقولون .

إنه رأي مفتعل هو الآخر . فكل الأجنة عند الإنسان والحيوان وحتى الطيور تنمو في الرحم أو البيضة مستقبلة الغذاء الذي يعمل على تكوينها وليس على حركتها . وشتان بين التكوّن والحركة . إن ما يأخذه الطفل من خلاصة غذائية من أمه إنما يصرف في تكوينه وما يأخذه منها هو الخلاصة وليس الغذاء في حاله الأول . وما نطلق عليه اسم حركة الجنين في بطن أمه إنما هو « تجربة » على صحة النمو في الأعضاء والأجهزة . وكثيراً ما تخرج القابلة من فم الوليد بقايا بلون بنّي غامق فور نزوله من رحم أمه فلا يغوط إذا جاء مكتمل النمو لأنه لم يرضع بعد . والغذاء الذي يتناوله بعد ذلك يصرف في الحركة والتطور وليس في التكوين فيفيض ويطرح الفائض .

وإذا كان الله لم يخلق شيئاً للعبث أو لمجرد الخلق فإن تزويده الأجسام الحية كلها بمعدة وأمعاء مختلفة الأحجام تقوم بدور محدد وتنتهي عند فتحة الشرج وبقناة بولية مرتبطة بأداة اسمها المثانة تستقبل السوائل التي تفيض عن حاجة الجسد، ليس تصرفاً عشوائياً جاء بشكل عفوي دون أن يكون له دور معين مرتبط بنظام حياة من أودع فيه.

وعودة إلى إبليس لنا أن نتساءل أما يكفي الإنسان ما يلقاه من نصب وعنت في حياته على الأرض ليضاف إلى شقاته ما هو أشد خطورة وضراوة، آفة تمثل الشر المطلق، تتحرك حيث تشاء وكيفما تشاء، لا يدركها الإنسان ولا يراها ولا يتبين الصدق أو الكذب في إيحائها إلا بعد وقوعه في شراكها.

وإذا كان الإنسان قادراً على خداع إنسان مثله رغم العناصر التي يستطيع المخدوع أن يستقرئ بها حقيقة ما ينتويه الخادع، كرنة الصوت ونظرات العين وقسمات الوجه وأثر الأسئلة المحرجة والنظرة المتفحصة والمناقشة التي قد تفضح النية والقصد، فكيف يزيد الله في أعبائه فيسلط عليه مخلوقاً لا تراه عينه ولا تحده حواسه، يستطيع أن يغويه بالحفز والإيحاء بعيداً عن عناصر التحليل التي يمكنه استخدامها مع مثيله الإنسان؟

أليس ظلماً مطلقاً أن يفرض الله الرحيم هذا العدو الجبار على مخلوق ضعيف وهو أرحم الراحمين؟

إن عدل الله مسلمة لا مراء فيها ولا جدال. إنه عادل لا يظلم أحداً. ولقد ورد هذا القول وتأكد في مواقع كثيرة من الكتاب. فكيف يتفق هذا التناقض مع أحداث هذه الواقعة؟

تعال نقرأ الآيات الأولى من مطلع سورة «الجن» لنتعرف على إبليس الذي كان واحداً منهم. إنها السورة الأربعون حسب ترتيب النزول بعد سورتي «ص» و «الأعراف» مباشرة، سابقة على سورة «الكهف» التي جاء في آيتها الخمسين أن إبليس كان منهم بتسع سور.

لنقرأ معاً:

﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا. وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. **وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا**. وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا. **وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا**. وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن

يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا . وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾ ١ ــ ١١ .

هل يعقل أن يكون هؤلاء الجن ملائكة سابقين طردهم الله من الملأ الأعلى لعصيان زعيمهم إبليس ؟ وإذا صح ذلك بالنسبة لزعيمهم الذي لم يُعرّف باسمه في هذا السورة ، فإن الآية :

﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا﴾

لا تعني عصيانه لأمر الله بل تجاوزه القدر المحدد له . والآية :

﴿وأنا كنا نقعد مقاعد للسمع﴾

لا تدل على أنهم كانوا يشاركون الملائكة في « مجالسهم » بل كانوا يسترقون السمع وحسب والعبارة المتممة لهذه الآية تؤكد ذلك :

﴿فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا﴾

وهذا إجراء اتخذ بعد أن تجاوز سفيههم في شططه بما كان يقوله عن الله .

وإذا وافقنا الفقهاء الذين يستشهدون بهذه الآية ليؤكدوا أن إبليس كان من هؤلاء الجن ، فلا ريب أن يكون حظر مجرد الاستماع وليس المشاركة ، قد تم بعد أن رفض إبليس رئيسهم الامتثال لأمر الله .

لكن السياق يقول إنهم مخلوقات غير منظورة تعيش على هذه الأرض ، يتمتع أفرادها بحياة خاصة بهم وهم بين مؤمن وفاسق ، لا علاقة لهم بالإغراء والغواية ، وأن رجالاً من الإنس كانوا يعوذون بهم وليس العكس .

ولو كان الشيطان منهم أو كانوا من أعوانه لوجدنا تنويهاً أو دلالة تؤكد ذلك . وكلمة « سفيهنا » التي وردت في الآية لم تعن في أي موضع جاء فيه ذكر السفهاء في كتابنا الزعيم أو الكبير . والتفسير اللغوي لفعل سفه لا يخرج عن مدلول الطيش والجهل . وهي تعني ذلك في هذه الآية ويجوز اعتبارها تعني أن كل سفيه منهم كان يقول على الله شططا . والطائش الجاهل الأحمق يعجز عن غواية الناس لأنه بتكوينه عرضة للغواية . فأين هذا من ذلك الذي توعّد بغواية البشر أجمعين باستثناء بعض المخلصين ؟

وسورة « الواقعة » في مفهومنا الدنيوي تشير إلى اجتماع عام يأمر به عاهل عظيم جليل الشأن يحضره كل العاملين تحت إمرته ، ينهي إليهم خلاله أمراً معيناً يتقبلونه جميعاً بتجاوب وإذعان باستثناء واحد من الحاضرين ، فيغضب العاهل المهيب ويطرده من حضرته ويأمره بأن لا يعود بعد اليوم إلى قصره .

هذا ما نفهمه من مجموع ماورد من أقوال في هذا السياق وفقاً لمدلولات لغتنا. ولكن، هل كنا قادرين على تخيل هذه الواقعة أو تصورها على هذا النحو لو لم تُجسّد لنا بهذا الأسلوب الحسّي الذي تدركه عقولنا وتحيط به مداركنا ومفاهيمنا؟

لنتذكر أن هذا الدين الختامي أنزل في مرحلة بلغ فيها تطور العقل البشري مرحلة تمكن العاقل من تخيل أبعاد واقعة دون حاجة إلى تجسيدها ليلمسها ويراها بحواسه لتكون مصداقاً لتخيله.

كان أسلافنا الأوائل عاجزين عن نسج صورة ما في خيالهم يتفقون في تجسيدها على شكل واحد بين كل الفئات وإن تشابه المقصود. لذلك تعددت أشكال الآلهة وإن توحدت اختصاصاتها وسبل إرضائها لكن الإنسان في الطور الأخير من وجوده بات في غنى عن كل هذه الحسيات، يستطيع أن يؤمن بخالق في حدود الصفات التي تسعفه بها مفردات لغته دون الاعتماد على التجسيد. مجرد صورة ذهنية.

والمسلمون لم يصوروا الله مجسداً بل احتفظوا في نفوسهم بصورة وصفية له لا تحددها الخطوط والأبعاد، تفوق كل صورة تخطر على البال والخاطر دون أن تكون رغم ذلك مطابقة كل الانطباق للصورة الحقيقية إن جاز هذا التعبير. وبلوغ هذه المرحلة من النضوج تمّ بعد طول صبر وتطور. لقد ظل تصوير الملائكة مقبولاً حتى مطلع القرن الثالث عشر ثم توقف ولم يعد فكر الإنسان بحاجة إلى المحسوس ليتخيل القدرة التي لا يحدها عقله ولا تحيط بها مفاهيمه أو تحدد معالمها مفردات لغته.

ولقد فسر اللغويون فعل «جن» بما سُتر عن الحس وقول الله سبحانه في الآية السادسة والخمسين من سورة «الذاريات» ونصها:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.
دليل واضح على أن المنظور وغير المنظور في هذا الكون، المحسوس وغير المحسوس، إنما خلق وفق نظام وضعه الخالق ليعمل ويفعل ضمن حدوده لأنه خُلق ليتبع الخالق أي ليعمل ما أودع فيه من خاصة العمل والحركة والتصرف.

فكلمة «جن» إذن تعني ما لا يقع تحت الحس. فهل يستطيع أحد أن يصور الشعور أو النزوة أو الرغبة وهي مقومات التصرف في تكويننا. والملائكة جن كذلك لأننا لا نراهم ولا نلمسهم مع فارق كبير. إنهم صورة الخير في أذهاننا أما إبليس فإنه الشر أو «الأنا» والشجرة الملعونة هي الحد الذي يجب أن يقف عنده الجشع والطمع. ولقد أراد الخالق العظيم

أن نفهم تكوين الإنسان وتدرجه في التطور من خلال صورة حسية يفهمها البسطاء والسطحيون بمدلول الكلمات ومفاهيمها ويدرك غاياتها المتعمقون. وإلهنا خاطب العقول في كتابنا المقدس ولم يخاطب الأجسام، وكلما تعمق إنسان في التفكير السليم ازداد فهمه لما كان غامضاً أو لما فهمه قبل ذلك دون تعمق.

من هنا نقول بحق إن إبليس هذا إذا كان من الجن الذي جاء ذكرهم في السورة التي سميت باسمهم، كان معنى ذلك أن الارتقاء إلى مرتبة الملك أمر مقرر وأن إبليس كان قاب قوسين أو أدنى ليصبح من الملائكة لولا هفوته الشنيعة التي محت كل جهوده التي بذلها ليجتاز الاختبار الأخير ففشل وعاد إلى مستوى المنبوذ اللعين.

والصورة الحسية التي يريد الله للإنسان أن يدركها بصرف النظر عن مراتب إدراكه، تتطلب تسلسلاً حسياً. لكن الحصيلة لا تخرج عن مدلول لا لبس فيه هو أن النزوة ما كانت لتؤثر في سلوك المخلوق لو اقتصرت معرفته على الخير.

لكن تجاوز تلك الشجرة سمح للنزوة أن تنمو وتترعرع في نفس الإنسان مما جعل الصراع بين الخير و «الغيرية» وبين نوازع الأنانية محتدماً في حياته ووجوده، فكان لا بدّ من وضع أسس تبين حدود طرفي الصراع ليثاب المحسن ويعاقب المسيء. إنه الاختبار الوحيد الذي يتيح تحديد أهلية الإنسان ومرتبته في المرحلة التالية من تدرجه في التطور الذي كان الهدف والغاية من خلقه. ولو كان خلق الإنسان قاصراً على ميلاده ونموه واجتيازه مرحلة الشباب ليصل إلى أرذل العمر ثم موته ودفنه في التراب، لكان خلقاً عبثاً ولحق قول الدهريين إنها حياتنا الدنيا نفنى بعدها ولجاز لكل مخلوق أن يضع النهج الذي يستجيب لكل ما تصبو إليه نفسه ما دام الموت هو النهاية التي لا بدّ منها والتي لا وجود بعدها.

وقد يتساءل بعضهم: إذا لم تكن تلك الشجرة هي الجنس أو الثمار التي تخلف فضلات يتوجب طرحها بل كانت الجشع والطموح كما تزعم، فلماذا طفق آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة بعد أن بانت لهما سوءاتهما التي ووريت من قبل عنهما، ولماذا جاءت الصيغة بالمثنى إذا كان آدم يعني الذكور من البشر وحواء من الإناث؟

والجواب هو أن الإنسان المجرد عن الذات و «الأنا» لا يجد ما يدفعه إلى التطور إلى الأفضل. فالحيوان موجود قبل الإنسان بملايين السنين وما زال موجوداً ظاهر العورة لا يجد في ظهورها نقصاً في الشخصية أو حطاً من القيمة الاعتبارية. ولقد حاكاه الإنسان في أطواره الأولى. لكن الأمر بات مختلفاً بعد أن تبلورت شخصيته وراح يتطلع إلى الأفضل. وأول

خطوة في هذا السبيل هي التميز في الشكل والسلوك عن الحيوان ـ غير العاقل ـ والسفاد عند هذا الحيوان يتم علناً على مرأى ومسمع المخلوقات الأخرى لأنه ضرورة للإبقاء على النوع. وكان الإنسان لا يختلف في شيء عن ذلك من قبل. ولو استمر الإنسان في محاكاة الحيوان في هذا السلوك لظل في مرتبته الحيوانية لا يبرحها ولا يرقى منها. فلا ريب والحالة هذه أن يكون همّ الإنسان الأول بعد أن عرف ذاته، مخالفة سلوك الحيوان القائم على الغريزة دون الإدراك والتعقل. إنه يمارس السفاد في فترة محددة للحفاظ على النوع ثم يصبح دون شبق بعد ذلك يعيش مع إناثه وكأنه منهم. أما الإنسان الذي أدرك فارق تكوينه عن الحيوان فقد اعتبر تلك الميزة ظاهرة تستوجب مراعاتها وإحاطتها بمفهوم يختلف عما هي عليه لدى الحيوان. وإذا كنا نرى اليوم تهتكاً في جهات مختلفة فالأمر لا يعدو الهبوط إلى المرحلة الحيوانية وحسب.

أما صيغة المثنى فقائمة وصحيحة لأن آدم هو رمز البشر الذكور على الأرض وحواء رمز الإناث.

ثم إننا نلاحظ أن إبليس حدد السبيل الذي سيتبعه في غواية البشر. قال إنه سيقعد لهم على صراط الله المستقيم، وهو تشبيه غاية في الدقة والبلاغة يعطي صورة ناطقة عن شخص يجلس على مدخل طريق سوية تؤدي إلى جهة مقصودة محددة، فيتصدى للعابرين محاولاً إقناعهم بتغيير مسارهم وسلوك سبل أخرى يزينها لهم بما سيلاقونه من مباهج ومتع ومسرات ليبعدهم عن الوصول إلى ما سيجدونه عند نهاية الطريق المستقيم، فمن استجاب لإغرائه ضل وتاه وانتهى إلى الضياع.

ويضيف قائلاً إنه سيأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. إنها إحاطة كاملة بالإنسان لا تترك له مجالاً للفكاك وقد سدت في وجهه السبل. وأي شيء يحيق بالإنسان في سلوكه اليومي بحيث يضله عن كل ما هو قويم غير أنانيته، إنها معه في كل مكان وزمان تراوده في كل حركة وغاية، وكلما ازدادت ظهوراً ازداد أسيرها فساداً وانحرافاً وضلالاً.

وقول إبليس:

﴿لأزينّن لهم في الأرض فلا تجد أكثرهم من الشاكرين﴾

لا يخرج في شيء عن دائرة هذا المعنى. خذ مثالاً على ذلك. حافظة نقود سقطت من جيب إنسان على الطريق وفيها مبلغ مغر من المال إضافة إلى أوراق ثبوتية تعرف بمكان إقامة صاحبها وبشخصه، فيعثر عليها إنسان آخر. هناك من يقول لنفسه لقد أرسل الله لي المال، فيضعها في جيبه ويمضي فرحاً مسروراً وهو يشعر في قرارة نفسه بأنه يغالط نفسه ويخدع ذاته. وآخر

يجدها فيأخذ المال ثم يتحرك « ضميره » فيرسل الأوراق الثبوتية إلى عنوان صاحبها بالبريد ويرى بذلك أنه فعل أكثر مما يتوجب عليه فعله . وثالث يجدها فيقف متردداً فترة ثم يقرر إعادة الحافظة إلى صاحبها بما فيها لأنه واثق من خطأ الاستئثار بمال الغير .

هؤلاء الثلاثة بشر ومن بني الإنسان فلماذا اختلفت سلوكياتهم في حالة واحدة وهم متساوون في الشكل والعنصر ؟ إنه « شيطان » كل منهم أخضع الأول دون حاجة إلى مبررات وأرضى الثاني بما فعل لقاء الاحتفاظ بالمال وهُزم وفشل مع الثالث فلم يتمكن من إغوائه .

الروح والعقل

ويذهب بعضهم إلى القول إن ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ تعني أن ذلك البشر كان قبل ذلك جماداً فلما نفخ الله فيه من روحه دبت الحياة فيه فتحرك .

لكن الخالق فسر معنى الروح التي اختلف المتفقهون في فهمها فقال في الآية الخامسة والثمانين من سورة « الإسراء » :

﴿ ويسألونك عن الروح **قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

فلقد فُهمت هذه العبارة على أوجه شتى وذهب الفقهاء إلى القول بأن الله رفض أن يطلع السائلين عن مدلول الروح فعزاها إلى أمره . ولكن إذا ربطنا بين هذا البيان وبين قوله في الآية الثانية والثمانين من سورة « يس » :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾

وربطنا بين كلمة « أمر » التي وردت في الآيتين ، ندرك أن الروح جزء من الأمر ، من أمر الخالق وليست الأمر كله . والأمر قدرة . وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن قدرة لا يتصورها العقل مرتبطة بالإرادة اللامتناهية تعمل وفقاً لها فكيف نعبر إذاً عن جزء بسيط من « كن » هذه التي تعني القدرة الكلية .

فالروح إذاً ليست الحياة . هناك من يصاب بجنّة أو بإغماء طويل ويشهد الطب أنه لا يزال على قيد الحياة . وهو حي حقاً من الناحية التشريحية ، بدلالة حركة قلبه وتنفسه وأجهزته الحسية ، لكنه لا يعقل ولا يدرك ، أي أنه لا يقدر على التحكم ، هو حي ولكن دون قدرة .

وأولئك الذين يستشهدون بالجزء الأخير من الآية السابعة عشرة من سورة « مريم » ونصها :

﴿ فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾

ليدللوا على خطأ ما ذهبت إليه في تعريف الروح متسائلين : هل أرسل الله إلى مريم إدراكه وعقله على صورة بشر ليهبها غلاماً ذكيا ؟ .

هؤلاء مدعوون لمراجعة معجم اللغة. فالروح بضم الراء يطلق على كل أمر خفي كالوحي. وقد أقر المجمع اللغوي هذا التفسير وأضاف: أن الروح هو ما به حياة النفوس وهداها وهو يطلق على جبريل منفرداً أو مقروناً بكلمة القدس فنقول الروح أو الروح القدس. ومن هو جبريل في عرفنا؟ أليس تجسيداً لقدرة الله وحامل أمره.

ونحن نقول لقد فقدنا القدرة على التفكير أو الحركة أو النطق وهو أمر يقع للإنسان رغم وجود التفكير وسلامة الحركة وطلاقة النطق. ومعنى قولنا هذا أن القدرة على تسخير هذه الميزات هي التي غابت. وهذه القدرة هي الروح وكل الآيات التي وردت كلمة الروح في سياقها تؤكد معنى القدرة.

اقرأ معي هذه الآيات واتخذ بعد ذلك الرأي الذي تريد:

﴿ويا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق. إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه...﴾ ١٧١ النساء.

﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه...﴾ ٢٢ المجادلة.

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً تهدي به من تشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ ٥٢ الشورى.

﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذي أحسن كل شيء خَلَقَه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ ٦ ـــ ٩ السجدة.

لا ريب أن هذا كله يؤكد معنى القدرة وليس الحياة، القدرة على الإدراك والتسخير والتصرف. لقد بدأ الحياة بالخلق. ولما تكون الإنسان على صورة الفقاريات العليا جعل نسله من سلالة من ماء مهين عن طريق التزاوج حتى إذا تطور، سواه لتعديل شكله ثم نفخ فيه من روحه أي أودع فيه يقظة الإدراك والتعقل.

من كل ما سبق نخرج بالمسلمات التالية:

١ ـــ إن الواقعة جرت في الملأ الأعلى دون أن يكون للإنسان أو لآدم وزوجه أي حضور فيها.

٢ ـــ إن كلمة « منها » التي جاءت بعد « أخرج » عنت خروج إبليس من ذلك الملأ الأعلى ووجوده على الأرض التي يقضي تكوينها بفناء كل من عليها وما عليها خلال أجل محدد.

٣ ـــ إن الجنة التي أودع فيها والتي وردت عرضاً في النص الأخير ليست الجنة المعدة للمؤمنين الذين يحسنون العمل خلال حياتهم ليستقروا فيها خالدين، بل هي جنة على الأرض أتيح لإبليس دخولها . ولو كانت في الملأ الأعلى ودخلها إبليس رغم إخراجه منها لما اختلف الأمر عما يجري في عالمنا المليء بالشرور . ومثل هذا الخلل جائز الوقوع على كوكبنا لكنه غير ممكن في الملأ الأعلى وإلا لفسدت السماء كما فسدت الأرض .

٤ ـــ إن جوهر إغراء إبليس لآدم وزوجه ليحملهما على مخالفة أمر الخالق كان تحوّلهما إلى ملكين أو اكتسابهما ميزة الخلود دون أعباء وكدح ونصب . وهذا ما ذهبنا إليه من أن طبيعة الملأ الأعلى لا تفعل في مواد الخلق القائمين فيه وهو ما يسمح بالخلود وأن الملائكة خلقوا من مادة غير مجسدة لا تنفعل وهما الميزتان اللتان يفتقر إليهما الإنسان بطبيعة تكوينه وبيئته ليقهر الموت . فالخلود إذاً غاية يصبوا إليها الإنسان وإلا لما أغري به .

والمؤمنون على الأرض يتفقون جميعاً على تنزيه الخالق عن الخطأ الذي لا يُعصم منه حتى الإنسان السوي . ولكم خطط الإنسان « بحكمة » وحسن تدبير مستهدفاً نتيجة متوقعة ففوجئ بخطأ تدبيره وبنتيجة مخالفة لكل ما رسم وخطط . وهذا أمر شائع في عالمنا يتحمل بعضنا مسؤولية ما فعلوا ويتنصل آخرون من النتائج .

لكن الله سبحانه لا يمكن أن يُسلَكَ في عداد المخطئين لأن من يخطئ في واحدة قد يخطئ في ثانية وثالثة . ولقد علم الله بتحول إبليس من ملك إلى شيطان رجيم وعنصر شر مقيم . فهل غاب عن علمه أن إقامة آدم وزوجه في جنة وارفة لن يحصنهما من إغواء إبليس اللعين ؟

سؤال غير وارد إطلاقاً . إن مثل هذا التوقع لا يغيب عن بال إنسان على شيء من الحكمة فكيف يغيب عن أحكم الحكماء العليم الخبير .

الجواب الوحيد هو أن الخالق العظيم ترك لمخلوقه الذي بلغ الدرجة الرابعة والأخيرة من التطور أن يجابه الواقع ليضع معادلة بين الاستقامة ومقوماتها والانحراف ومسبباته وأن تكون هذه المعادلة أساساً لحياة الإنسان المقبلة .

٥ ــ وقوله :

﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ **٢٤ ، ٢٥ الأعراف .**

موجه إلى من رمز إليهم باسم آدم إضافة إلى الشيطان .

واهبطوا هذه لا تعني كما سبق لي القول النزول من أعلى إلى أسفل بل تعني مغادرة المكان والحلول في أماكن أخرى . ولما كانت سكنى آدم وزوجه ــ البشر ذكوراً وإناثاً ــ في تلك الجنة يجعلهم متكافلين متضامنين فيها لا يحتاجون إلى سعي لكسب الرزق فإن الأرض التي سيتفرقون فيها ليعمروها لا توفر ذلك العطاء إلا بشق الأنفس وتكافؤ الجهد المبذول .

٦ ــ وخطيئة آدم هذه قد حكمت على الإنسان أن يعيش والشيطان في ركابه في كل مراحل الحياة ترهقه غواياته ويعكر صفوه بعدائه .

٧ ــ إن تعليم آدم الأسماء لم يتم في يوم وليلة بل جاء نتيجة التطور .

٨ ــ إن تفوق الإنسان على الملك قُدّر بسبب الفارق العظيم في مقومات الحياة بين الجانبين والإنسان السوي الذي يتقيد بتعاليم الخالق هو وحده الأفضل .

٩ ــ إن تكوين الإنسان من حيث طبيعته يقتضي أن يتناول كمية كبيرة من الطعام ليستخلص منها قدراً محدوداً من الطاقة ــ السعرات الحرارية ــ وإن ما يطرحه من نفاية يعيش عليه عدد من المخلوقات الأخرى الأدنى مرتبة وقيمة ويتحول آخر الأمر إلى مادة الأرض . ولو اقتصر غذاء الإنسان على قدر طفيف من الطعام لتغير نظام الكون كله ليتناسق مع الواقع المقدّر . ولو كانت تفاحة واحدة مثلاً تكفي غذاء الإنسان طيلة يوم كامل لما وجد سبباً للكدح والعمل ولقتل الفراغ وجوده وأفسد عالمه .

ولقد شهدنا في الحرب العالمية الثانية جيوشياً يحمل أفرادها حبات من مكونات غذائية مصنعة تكفي الواحدة منها لتغني الجندي عن وجبة دسمة وتمده بالطاقة الكافية ليوم كامل . لكن طبيعة تكوين جسد الإنسان كانت توجب على ذلك الجندي أن يملأ فراغ معدته بأي شيء حتى ولو كان من حشائش الأرض .

فسعي الإنسان محصور في تأمين وجوده وهذا وحده السبب الأول والأخير في تطوره . وهذه الواقعة توحي بأسئلة على غاية من الأهمية من حقنا أن نطرحها بجرأة دون خوف أو توجس .

إن تسلسل الأحداث في هذا التمرد يدل على أن مخلوقاً قد تحدى الخالق ولما سئل عن سبب عصيانه أجاب بترفع وكبرياء بما يشير إلى أن الخالق قد أخطأ إذ أمر المخلوق السامي أن يسجد للمخلوق التافه، ولو كانت مخالفة أمر الخالق العظيم لا تعاقب إلا بمجرد الطرد من «مجلسه» لعمت الفوضى السماء بأشد مما تعم الأرض. لذا كان من المتوقع أن تكون عقوبة ذلك المتمرد أياً كان شأنه عبرة ورادعاً لكل من تسول له نفسه عصيان أمر ذلك القادر الذي لا تحد قدرته. لكن تصرفه جاء يوحي إلى أفكارنا المحدودة بضعف لا يتفق بحال مع ما نعرفه عن صفاته وقدراته وجبروته. إن تساهله الذي لمسناه في تفاصيل هذه الواقعة يعطي مثالاً سيئاً للملائكة الآخرين الذين قد يعصون بدورهم إذا ما كُلِّفوا بأمر لم يتفق وأمزجتهم مع أننا عرفنا عنهم عدم عصيان أي أمر يصدره الخالق لهم، ما دامت العقوبة مجرد الهبوط للعيش في عالم آخر حتى اليوم الموعود.

والسؤال المحير الثاني هو: إذا كان الخالق يعلم ما يُسرّ المخلوق وما يُعلن، فكيف لم يتوقع هذا الموقف من إبليس؟ لمَ لمْ يحسم الأمر دون إعلانه وآثر أن يجعله معلناً رغم الدلالات السيئة التي ستستنتجها العقول؟ وإذا جاز إيجاد مبرر لتصرف الخالق العظيم على هذا النحو، فما ذنب الإنسان الذي لم يكن طرفاً مباشراً وفاعلاً في هذا الحدث ليتحمل وحده نتائج هذا التمرد بينما لم يعد منه على الأطراف الأخرى أية تبعة مؤذية؟

كيف يسمح الخالق لهذا العنصر الخطير أن يتصدى للإنسان الضعيف بحيث ينجم عن هذا الصراع غير المتكافئ ما يكوِّن ذريعة لمعاقبته مع أنه هو الذي ابتلاه بهذا الظلم رغم أنه الرؤوف الرحيم؟

وإذا كان إبليس قد اعترف مرتين بأن الخالق هو الذي أغواه على فعل ما فعل، ألا يعني ذلك أن الله كان يعمل على إيجاد ذريعة ليعاقب الإنسان الذي خلقه من طين ثم ماء مهين؟ وإذا صح ذلك ألا يكون ظلماً لا يمكن لأحد أن يعزوه إلى الخالق العظيم.

والله الذي لا تخفى عليه خافية، أكان يجهل أن إبليس سيغوي آدم بحيث يجعله يخالف أمر الله فيقرب من الشجرة التي منعه الله من الاقتراب منها؟ أكانت تلك ذريعة أيضاً ليخرجه من تلك الجنة التي ما كان ليجوع فيها ولا يشقى؟

وإذا كان آدم لا يمثل نوع الإنسان بل كان فرداً واحداً كما يقول الفقهاء فما هي الغاية من خلق أنثى معه تملك كما يملك كل مقومات الجنس والتناسل، إذا كانت الشجرة كما تقول الأديان السابقة هي المتعة الجنسية، أكان العالم الذي نعيش فيه اليوم سيقتصر الوجود

فيه على كل أنواع النبات والحيوان باستثناء مخلوقين اثنين يعيشان منزويين في جنة خاصة لا يعرفان لوجودهما سببا ؟

لقد قال لهما إبليس وهو يغويهما أن الخالق ما منعهما عن الشجرة إلا لأنهما إذا قربا منها سيتحولان إلى ملكين أو إلى صاحبي ملك لا يفنى يخلدان فيه :
﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ ١٢٠ طه .

ولو كان هذا يعني خلود آدم وزوجه فإن ذلك يؤكد أن آدم كان يعرف أنه سيموت ويفنى لذلك استجاب للإغراء طمعاً في أزلية البقاء . وإذا كان الخلود يعني بقاء النوع البشري يتوارث الوجود خلفاً عن سلف ، فهل كان الخالق يرغب في أن يقتصر خلقه عليهما لينهيا حياتهما في تلك الجنة وحسب ؟

كل هذا التساؤل يحملنا حكماً إلى نتيجة واحدة تبرئ الخالق العظيم من كل ما قد يتواتر في النفوس التي تتمسك بحرفية الكلمات . إن ذلك التمرد مجرد صورة تعطي الإنسان مفهوماً واضحاً لواقع نفس الإنسان في حقبة لم يكن الإنسان قد توصل فيها إلى وضع مبادئ لما بات يسمى اليوم « علم النفس » بفروعه ومضامينه وما كان يدري شيئاً عما خفي من دوافع شعوره التي يعرفها اليوم . وهو إيضاح بأن طبيعة تكوين الإنسان من مادة الأرض التي يعيش عليها تنتج بالضرورة مثل هذه النوازع وأنه لو خلق مجرداً عنها لكان مثله كمثل ملائكة السماء .

فلا عصيان ولا تمرد . إن الله يعلم كل شيء في الكون الذي خلقه ولا نحيط بقدر من علمه إلا بما يشاء لنا منه . ومن كان عليماً لا يخفى عنه ما يعتلج في نفس إبليس ـــ لو اعتلج حقاً ـــ . ومن كان عليماً لا يخفى عنه أن البشر سيستجيب للإغراء . ولو كان النظام قسرياً على هذه الأرض لا دور للإرادة فيه ، لعاش الإنسان حيواناً غير عاقل كسائر الحيوانات .

إنها طبيعة الإنسان في نطاق الحرية التي يتمتع بها . والتعاليم نظام والتمسك بها اختيار . والفوز في الامتحان يؤهل الفائز لمصير أفضل .

لقد خلق الله الإنسان من مادة الأرض ـــ من طين ـــ . وهو يعلم أن تلك المادة تحوي مقومات الفعل والتفاعل وأنها ستكون الأساس الفاعل في سلوكه وتصرفه .

خذ ما يؤيد هذا القول دون ريبة ولا مناص للتلاعب في التفسير والتأويل :
﴿ والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها ﴾ ٥ ـــ ١٠ الشمس .

وقوله :

﴿ والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتّقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ﴾ ١ ــ ٧ الليل .

ألا تلاحظ معي كلمة « ما » التي تدل في لغتنا على غير العاقل والتي وردت في تسوية النفس وفي خلق الذكر والأنثى ؟ إن هذه المقومات هي أساس تكوين الذات البشرية .

واذكر معي قوله تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾

إنه تنبيه لنبيه المرسل يذكره بطبيعة الإنسان ليتعقل في أداء رسالته ويتلاءم مع تلك الطبيعة في تبشيره بالنظام الجديد . إنها ليست نتيجة تجربة ينهيها إلى النبي وكأنه يقول : لقد اختبرت هذا الإنسان من قبل فلم أجد عنده تصميماً . لو أُخذ المعنى على هذه الصورة لكان اتهاماً للقدرة المطلقة بعدم العلم المسبق وبذلك يتشابه الخالق والمخلوق .

وآدم رمز كل الذكور من البشر وحواء كل الإناث . والتزاوج والتناسل هما القاعدة التي خلق الله العظيم الأحياء عليها بعد أن جعل الخلق الأول من مقومات الأرض . وما ينطبق على إنسان من حيث عناصر التكوين النفسي ينطبق على البشر أجمعين . فالفضول وحب الاستطلاع قائمان في كل نفس . وأن تكون ثمار تلك الجنة متاحة لكل من فيها باستثناء ثمار شجرة معينة ، أمر يدعو الجميع إلى حب المعرفة إرضاء لفضولهم .

ألا تذكر تلك القصة الشعبية التي كانت تروى لنا عن ذلك الملك الذي أقام إنساناً في قصر ذي مائة غرفة مليئة بكل ماتتوق إليه النفس ، سمح له بدخولها جميعاً باستثناء واحدة . فظل ذلك الإنسان يتمتع بتلك الغرف واحدة تلو الأخرى حتى بات كل ما فيها بين يديه . وأخيراً وقف أمام باب الغرفة التي مُنع من دخولها فراح يتساءل : ترى ماذا تحويه هذه الغرفة؟ لقد وجدت في الغرف الأخرى كل ماتتوق إليه النفس فلماذا مُنعت من دخول هذه؟ لا ريب أن فيها مايفوق كل مارأيته في الغرف الأخرى ولولا ذلك لما منعني من دخولها . اقترب من الباب لكنه عدل في اللحظة الأخيرة وقال لنفسه : حسبي ما في الغرف الأخرى ، لن أدخلها . لكنه بعد العديد من المحاولات التي استطاع التغلب فيها على دوافعه في اللحظة الأخيرة ، ضعُف آخر الأمر فوجدها خالية وطرد من القصر !

تلك هي طبيعة الإنسان والمتعقل أقل استجابة للفضول .

ورفض إبليس السجود صورة عن كبرياء الإنسان وغروره وهما صفتان تلازمان الإنسان ما دام أسيراً لأناه . وكلٌّ شيطانه تحت إبطه كما أسلفت . وليس هناك شيطان منفصل عن الإنسان .

إذاً ، لم يقع قط تمرد في السماء ولم يقف الله قط موقف العاجز أو الظالم أو المتساهل حيال مخلوق يعصي له أمراً ويتحداه في خلقه . إنها صورة تأخذها العقول البسيطة والسطحية على ما تدل عليه معاني الكلمات في حين أن من يتعمق ويتعقل يجد فيها الأبعاد التي عناها الله بها .

وإذا كان الكون كله ، بكل ما نرى ونحس ونشعر من صنع هذا الخالق الأوحد الذي كان يسخر ملائكته لتوثيق حسن النظام فيه ، فإن لك أن تتصور الأعداد الفلكية الهائلة التي لا يدركها العقل من الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، آدمنا نحن معشر البشر .

إنها مجرد صورة رمزية ليحيط الإنسان علماً بذاته . والخالق ليس باحثاً في مختبر يجري فيه هذه وتلك من التجارب ليصل إلى الأفضل .

والشمس لا تطلع من المشرق وتغيب في المغرب . واليوم ليس أربعاً وعشرين ساعة وليست هناك سنوات كبيسة وفصول مختلفة . الزمن آفتنا نحن وحدنا ولو انطبق على الخالق لجاز لنا القول إنه بلغ من الكبر عتيا . وإذا كان عمر عالمنا حسب رأي العلماء بدءاً من الانفجار الأول وحتى بدء وجودنا ستة مليارات من سني أرضنا ، فماذا عن العوالم الأخرى .

وما نسميه « دين » يؤدي بالمرء إلى الجنة أو إلى النار إنما هو في الواقع نظام أنزل إلينا لنعمل به فنتعايش هنا على الأرض دون أن يعود منه على الخالق ما نسميه نفعاً .

فالصلاة في ديننا أشبه بتقرير تقدمه بين يدي الخالق لتؤكد له أنك إنسان صالح تعمل وفق ما أمرك أن تعمل . لذا وجدناه يقول لنا إنها تنهي عن الفحشاء والمنكر . وإذا أتيتهما رغم صلاتك فإنما تقدم الدليل على أنك كاذب ومنافق ولا حاجة به إلى صلاتك التي تكون في هذه الحالة مجرد طقسيات لا يأبه بها لم يفرضها عليك إن كنت تعقل وتفقه . والتلاعب في التأويل وخلق المبررات التي برع بهما بعض المتفقهين سيعود عليهم بما يستحقون يوم لا تظلم نفس شيئاً ولا يجزى الإنسان إلا بما كان يفعل .

والزكاة التي نخرجها لا نرسلها حوالة بريدية إلى الخالق في عليائه بل نقدمها للذين يستحقونها دون منّة أو ترفع لأن في أموالنا حق معلوم لهم . ولماذا يفرض الخالق علينا ما لا يعود

عليه بأي نفع؟ ألا يدل هذا على أنه يريدنا أن نقيم مجتمعاً فاضلاً بتطبيق تعليماته؟ فهل هناك فائدة يجنيها؟

إن ديننا نظام أخلاقي اجتماعي اقتصادي لأن الخالق يعلم أن المجتمع لا يقوم على مبدأ التساوي بين أفراده ولو تساوينا فيه لما وجدنا من يقوم بأعمال يربأ آخرون عن القيام بها مع أنها أساسية في حياتنا. فالتساوي المفروض علينا هو في الحقوق والواجبات لأننا جميعاً من أرومة واحدة لكن الخالق جعلنا طبقات ليتم التناسق في وجودنا.

ألم تقرأ قوله تعالى:

﴿أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون﴾ ٣٢ الزخرف.
تصور شكل المجتمع لولا هذا التقسيم.

إن طبيعة المجتمع تفرض أن تختلف الدخول بحسب الاختصاصات والخالق يعرف ذلك وهو الذي قدّره. لكنه أدرك كذلك أننا قد ننسى أو نتناسى أننا نتمم بعضنا بعضاً في المجتمع الواحد. ولولا المزارع والحذّاء وجامع القمامة وأصحاب الحرف اليدوية الأخرى لما استقرت حياة المترفعين ولا استقامت. ولو كنا مسلمين بالإيمان وليس بالتبعية لما كان بيننا جائع أو عار أو مريض لا يجد علاجاً ولما قام حقد في نفوس الفقراء ضد الأغنياء ولما راجت المذاهب الاجتماعية الوضعية.

إن القدْر المعلوم الذي فرضه الخالق في أموال الموسرين إنما فُرض ليبقى المجتمع متكافلاً متضامناً.

والصوم الذي فرضه الخالق ليس «تجويعاً» بقصد ترشيد الاستهلاك. فنحن نستهلك في شهر الصوم أضعاف ما نستهلكه في الأشهر الأخرى وهذا يخالف ما أراده الخالق من صيامنا. فهو يعلم أن الإنسان قد لا ينسجم مع أجهزة جسمه ولا يدرك أن هذا الجسم يحوي ما لا يحصى من «الجنود» الذين أودعهم الله فيه لصيانته وحفظه من العوامل السيئة التي يسببها إفراط الإنسان. مثلهم في ذلك كمثل أسرة من خمسة أفراد يقوم خادم بأعباء النظافة في البيت بشكل مقبول لأنه يستطيع القيام بواجبه بشكل جيد ما داموا خمسة. ولكن إذا تضاعف عدد السكان ولم يؤت بخادم ثانٍ فإن مستوى النظافة في ذلك البيت لن يبقى على حاله. سيرهق الخادم وستنعدم النظافة المطلوبة. فإذا غاب السواد الأعظم من أهل البيت في رحلة خارجية ولم يبق إلا عدد قليل، يستطيع الخادم خلال تلك الفترة أن يستعيد نشاطه وأن يقوم بنظافة البيت على أفضل وجه.

كذلك الصوم . إنه يسمح لأجهزة الجسد المرهقة أن تستعيد نشاطها وأن تخلصه من النفايات المتراكمة ليعود إلى ما يجب أن يكون عليه من قدرة مقاومة وقوة احتمال .

لكننا وللأسف نجتر من الإفطار وحتى الإمساك وينام بعضنا حتى عصر اليوم التالي ونترقب حلول موعد الإفطار لنندفع إلى المائدة اندفاع المنتقمين . وهناك من يثور ويغضب لأتفه الأسباب لأنه صائم . أليس مضحكاً ومخزياً صيامنا هذا .

لا ريب أنك سمعت أن بعض الناس في البلاد « المتحضرة » يقصرون غذاؤهم اليومي على ليتر أو ليترين من الحليب لا يتناولون سواه طيلة أيام قد تصل إلى الثلاثين في بعض الحالات . ألا ترى معي هذا النوع من الصيام لدى أناس لم يُفرض عليهم الصوم كما فرض علينا .

إن التكافل في المجتمع والتضامن هما الأساس الذي شاء الخالق العظيم أن يبني عليه وجودنا . ألم تقرأ قوله تعالى :
﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ **٤٥ النور** .
وقوله :
﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديرا ﴾ **٥٤ الفرقان** .

ألا ترى أننا بذلك يجب أن نكون متساوين في علاقاتنا لا يميز أحدنا عن الآخر إلا سلوكه ومداركه وهذا التمييز لا يسمح بالترفع بل بالتعاون والتآزر .

ليس هناك إبليس ولا شيطان بل نوازع ونزوات تدفع ضعفاء الإرادة إلى التصرف بما لا يتفق والنظام الذي سنّه الخالق لصالح الإنسان . ألم تقرأ ما قاله الخالق العظيم في سورة « يس » مؤكداً صحة ما أقول ؟
﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضلّ منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ **٦٠ ــ ٦٢** .

لقد أمرنا الله أن نعبده أي أن نتبع إرشاداته وتعاليمه لنكون جديرن بما سيكون . لكننا تبعنا أهواءنا « شيطاننا » ولم نتعظ بما وقع لمن سبق ومازلنا وللأسف الشديد في انحطاط مستمر .

والذين يستطيعون ضبط نزواتهم وتجنب الإثم إلا اللمم أولئك سينعمون . وخير مثال على أثر الأنانية في نفوسنا ما قاله شاعر من بلدنا :

معلّلتي بالــوصل والموت دونــه إذا مت ظمآنــاً فلا نزل القطــر

وخير مثال على عفة النفس ما قاله شاعر آخر من مواطنينا :

ولــو أني حبــيت الخلــد فرداً لما أحبــبت في الخلــد انفــرادا
فلا نزلت علــــــيّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظــم البــلادا

ألا تلمس بنفسك الفارق البعيد بين الغيرية والأنانية؟ كلاهما شاعر ومرموق لكن الفارق بينهما هو نظرة كل منهما إلى الحياة وإلى دوره فيها . فالأول اعتبر نفسه صاحب الحق الذي يجب أن يناله وطبق المثل القائل : « أنا وبعدي الطوفان » . أما الثاني فقد رأى سعادته جزءاً من سعادة من حوله لا يرضى بأن ينفرد فيها . وهذه هي حال الإنسان في المجتمع .

هل أطمئن في ختام هذا التحليل على استيعابك ما أردتك أن تعيه ؟ اللهم لقد ذكرت ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا .

أنا واثق من أنك تود أن تطرح مجموعة من الأسئلة التي تعتلج في خاطرك بعد قراءة ما سبق . السؤال الأول هو :

ــ إذا كانت واقعة التمرد هذه مجرد صورة للدلالة على نوازع النفس فما الفائدة أو الغاية من امتثال الملائكة لأمر الله ؟ هل أقحموا في السياق لمجرد إظهار خطيئة إبليس ؟

الجواب ذو شقين . الأول هو أن الملائكة كما سبق وصفهم ، مخلوقات نورانية لا تعصي لله أمراً ومن تبع أوامر الله وتعاليمه كان كالملك الذي يفعل ما يأمره الله به ولا يعصي له أمراً . فهو إذاً عنصر الخير في تكوين النفس وما يدخل في تسويتها مما يلهمها التقوى في حين أن مفهوم الشر الذي أُجمل في كلمة الفجور هو ما اتفقنا على أنه شيطان النفس .

والشق الثاني نأخذه من قوله تعالى في آيات من كتابه الكريم :

﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ **٦١ الأنعام** .

﴿ وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ **١٠ ــ ١٢ الانفطار** .
﴿ إن كل نفس لمّا عليها حافظ ﴾ **٤ الطارق** .

والفقهاء يفسرون كلمة حافظ بمعنى رقيب . وأرى أن المعنى يتجاوز المراقبة إلى المساعدة والعون . وبإيراد الملائكة مقابل إبليس صورة واضحة وناطقة لطرفي سلوك الإنسان : الخير والشر . وقوله تعالى في إحدى آياته عن إبليس : « وكان من الجن » يوجه الفكر إلى أن

النوازع النفسية إذا أُخمدت يمكنها أن ترق بالإنسان الذي استطاع السيطرة عليها إلى مستوى الملائكة .

وسؤال آخر سمعته من كثيرين من الشباب الحائرين بين الدين والواقع . يقول : إذا كان لكل بداية نهاية ولكل فعل هدف وغاية فما هي الغاية من خلق الإنسان . هل هي إيداع الصالحين في جنات النعيم مع الحور العين والغلمان المخلدين والفاكهة اللذيذة وأنهار الحليب والعسل والخمر التي لا تسكر ، ليستقروا في خلود دون شاغل غير الطعام والجنس في حين يلقى بالفاسقين الخاسرين في النار التي وقودها الناس والحجارة يشوون فيها إلى أبد الآبدين ؟

سؤال سمعته من أفواه كثيرة بعضها كان ساخراً وبعضها الآخر حائراً . والرد لا يجوز أن يقتصر على عبارة « تلك مشيئة الله ومن استراب بها كفر » . هذا قول يردده الفقهاء لأنهم يؤمنون بالنص كما نؤمن به لكنهم لا يعملون فكرهم لأن « من تعمق كفر » .

لا بدّ أن نطرح الموضوع بشكل مبسط لنتجنب كل التباس محتمل . قلنا في سياق هذا الموضوع إن الإنسان خلق على هذه الأرض من موادها ليتفاعل ويتجانس وليعيش وفقاً للقوانين والنظم التي أقيمت عليها .

ونحن نلاحظ دون تعمق يذكر أن كل مخلوق على هذه الأرض يعيش وفقاً لقانون أودع فيه . فلنأخذ إذاً حبة قمح وحبة شعير وحبة سمسم ولنزرعها في تربة واحدة ونسقيها بماء واحد . سنجد أن حبة القمح أنتجت قمحاً والشعير شعيراً رغم أن تربة الأرض واحدة والماء واحد . وهذا يعني أن في كل حبة نظاماً خاصاً بها أودع فيها بحيث تحافظ على البقاء .

ولو انتقلنا ونحن على حالنا إلى كوكب آخر يختلف في طبيعة تكوينه عن طبيعة الأرض لما استطعنا الحياة ما دمنا نختلف في تكويننا عما هو عليه . أرأيت ما يتخذه رواد الفضاء من احتياطات ليجابهوا التغيير الذي يعتبر سطحياً في تكوين القمر الذي هو تابع لأرضنا والذي لم يخرج عن مجموعتنا الشمسية التي نحن جزء منها .

والملائكة كما عُرّفنا بهم أجساد نورانية لا زواج ولا تناسل ولا مقومات بدنية لأن المكان الذي هم فيه لا يتطلب منهم هذا التجسد . لكن الملك إذا أنزل على الأرض جُسّد ليستقيم الأمر وفقاً لقانون الأرض . ألم تقرأ قوله تعالى :

﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ ١٧ــ ١٩ مريم .

صحيح أن بعض الزنادقة يزعمون أن هذه تورية للخدعة التي انطلت على مريم كما وقع لكثير من الراهبات على عهد القياصرة ويستشهدون براسبوتين وفسوقه وما كتبه أديب روسي معروف مؤيداً لهذا الزعم .

لكننا نبحث الأمر بفكر المؤمنين بحيث نستنتج أن اختلاف طبيعة المكان تستوجب الاختلاف في طبيعة الكائن نفسه .

ونحن نعرف أن الأرض ليست أزلية الوجود سواء لعودة الكتلة الأساسية إلى الالتحام ثم الانفجار من جديد كما تقول النظريات التي اتفق عليها العلماء حول بداية الكون أو للمشيئة التي قررها الخالق العظيم لبدء الكون ونهايته .

ولكي ينتقل الإنسان الصالح إلى المكان الآخر الذي سيخلد فيه لا بدّ من حدوث تغير في تكوينه فالوجود كله تناسق وتناغم قدره الخالق في خلقه . وإذا كان قد خلقنا من طين الأرض لننسجم في الوجود معها فإن إعادتنا إلى الوجود لا بدّ أن يكون مشفوعاً بتغيير يتفق والمكان الذي سنكون فيه .

أما الفاسقون الكفرة الذين لم يؤمنوا بخالق الخلق وتعاليمه فإن أبسط حالات العقاب هي أن يظلوا على تكوينهم فيتأثروا بشدة بما اختلف عليه المكان مع تعديل بسيط يبقيهم أحياء يعانون مما يشعرون به من آلام .

وأنت هنا على الأرض كثيراً ما تقول : كنت أشعر بقلق قاتل ، أو كانت النار تتأجج في أحشائي ، أو أنني ما استطعت النوم خوفاً من النتيجة المرتقبة ، إلى آخر ما هنالك من أقوال تعبر بها عن أحاسيسك في حالات معينة . ترى كيف يكون عليه حال من يعاني من هذه الأحاسيس على صورة أشد إيلاماً وبشكل مستمر ؟

هذا مجرد تحليل يقبله العقل في واقع اليوم .

أما عن الحور والفاكهة والطعام والشراب فالأمر يختلف فيها بين موضع وآخر في قرآننا الكريم والسبب لا يخفى على من شاء الإدراك والتعمق .

لنتذكر أولاً ما حملته إلينا المراجع حول طبيعة الإنسان على هذه الأرض . لنتذكر ما ورد في بعض كتب العهد القديم من أن داود وسليمان كان لكلٍ منهما سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة ! لنتذكر خيام الرايات الحمر في الجاهلية والإماء والسبايا وما كان مصيرهن .

ولنتذكر أخيراً أن ديننا جاء يضع حداً لهذا الفسوق بعد أن قيل لنا أن المسيح ضاجع سامرية ! ترى كيف يمكن لأي مصلح أن يغري الإنسان الشبق الذي يعيش في ملذاته المفرطة ما دام قادراً ، وأن يعزي الإنسان المظلوم المهان الذي يعامل أسوأ من دابة قميئة على الأرض ؟ ألا يقودنا المنطق السليم إلى معادلة مبادلة العاجل بالآجل ؟

لقد سمعت بعض « المتحررين » المزعومين يقول ماذا في الجنة ؟ المياه والأشجار والنساء والفاكهة ؟ إنها بين أيدينا اليوم ! غباء كما ترى لكنه واقع . وقد يصح هذا القول بالنسبة للجزيرة العربية حيث أنزل هذا الدين لأن المياه كانت نادرة فيها وكذلك الأشجار المثمرة . لقد أُنزل هذا الدين على العرب حقاً لكنه لم يوقف عليهم وإلا لبدأنا قراءة سورة الفاتحة قائلين : الحمد لله رب العرب . لكننا نقول كما ترى : الحمد لله رب العالمين . فالدين إذاً ليس للعرب وحدهم .

صحيح أن الأديان كلها جاءت في مشرق الأرض ثم انتقلت إلى مغربها مع الأخذ بعين الاعتبار أن آسيا وأوربا كانتا كتلة واحدة كما يقول بعضهم أو كتلة مترابطة كما يقول التاريخ ، لكن الغرب كان ينعم كذلك بالفلاسفة والمفكرين الذين ابتكروا آلهة وأربابا .

فالدين الإسلامي استطاع إقناع المتطلعين بإرجاء ملذاتهم الفاضحة التي يتمتعون بها على هذه الأرض لينعموا بأفضل منها في الحياة الآخرة مع الفارق الأكثر أهمية وهو الخلود بدلاً من التلذذ خلال سنوات معينة ينتهي بعدها الوجود .

ولعل أعمق ما أوحى به الخالق للأذهان الواعية قوله تعالى :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ **٢٥ البقرة .**

لم يشر إلى الحور كما ترى بل استعاض عنهن بالأزواج ولكل ما يشتهي وهناك بعض المندفعين في تعزيز هذه الأماني بالطريقة التي ترضي العقول السطحية يحدد عدد الحور لكل مؤمن بثلاثين من الحور العين اللواتي لم يمسسهن قبله إنس ولا جان . لكن خطيباً سمعته بنفسي أكد أن عدد الحوريات سيكون خمسمائة لكل مؤمن من أهل الجنة . ولعله قرأ ما روي عن سليمان وداود . ولقد انسحبت بهدوء دون أن أصلي مقتدياً بهذا الإمام العليم ... !

وما يدعم ما ذهبت إليه من أننا سنكون في عالم آخر قوله عن الثمار :

﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ .

بحيث يراها المقيم من الثمار التي عرفها على الأرض فلا يتردد في أكلها. ولو كانت من ثمار الأرض لما وجب هذا التنويه.

كان لفعل هذا الدين في المجتمع أن ألغى الرقيق وحرر الأنثى من عبودية الجنس وأحاطها بما يقتضيه وجودها من رعاية وتقدير. صحيح أن بعض ذوي النفوذ يتلاعبون بالتعاليم بفضل ذلك النفر من «الفقهاء» المنتفعين، فيحلون ما حُرم ويحيون ما عوقب قوم لوط على ممارسته. لكن هذا الانحراف لم يقتصر على عالمنا وحده. فالشذوذ الجنسي بات مباحاً بقانون صريح في بلد «متحضر»، وفسوق المرأة بات محمياً بمفاهيم الحرية. هذه كلها دلائل على الانحدار والتاريخ يعيد نفسه كما يؤكد القول المأثور.

إن هذه الأرض ومن عليها يوحون بحلقات متوالية لم تسعفنا إمكاناتنا المحدودة في إيجاد الحلقات المفقودة منها والتي قالها ربنا في كتابه.

﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ ٣١ يس.
وخير دليل على صحة هذا القول ما نراه اليوم من مخلفات أولئك الذين أهلكوا من قبل. وأقرب دليل على الحلقات المفقودة ما تنطق به الآثار في مصر. فالخبراء يؤكدون أن أياً من حجارة الهرم لا يقل وزنه عن أربعة أطنان وأنه نقل من جنوب البلاد إلى شمالها. ألا يحق لنا أن نتساءل كيف تم نقل هذه الحجارة وتسويتها وإقامتها في بناء نعجز عن إنشاء مثيل له وفقاً للمقومات التي أقيم بها. كيف رفعت هذه الحجارة والرافعة يفخر أسلافنا المقربون بابتكارها. وكيف نقلت بحراً على مياه النيل على متن قوارب من أغصان الشجر المترابطة التي نزعم أنها الخطوة الأولى في تطور الفُلْك. والمومياءات التي استطاع أولئك الناس الإبقاء عليها دون أن يتلفها الزمن، بفعل عملية التحنيط، وتحديد الجهات الرئيسية الأربعة بشكل أكثر دقة مما توصلنا إليها بفضل تطورنا، كل هذه المنجزات تمت في عصر سبق نبي اليهود. فكيف يستقيم الأمر إذا كان الشعب المصري سليل أولئك المبدعين؟ أما كان علمهم سينتقل إلى أنسالهم كما يشهد واقعنا الحياتي المألوف؟ ألا نرى في عالم اليوم من يقوم بعمل فني توارثه في أسرته عن أسلافه؟ لا بدّ إذاً من الحلقة المفقودة التي أشار إليها قرآننا في سورة الشعراء:
﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين﴾ ٦٥، ٦٦.
إنها آية كما قال ربنا لقوم يؤمنون.

إن ديننا يصلح لكل زمان ومكان. والذين يخرجون عن دائرته لا يُعملون عقولهم في تحليل مراميه التي أوردت حين نزولها بمفهوم يتفق مع مستوى الإدراك العقلي الذي كان سائداً

حينذاك . ولو عدنا بأمانة إلى ما جاء فيه لوجدناه يحض ذوي العقول والألباب على التعمق للوصول إلى مزيد من الفهم والإدراك .

صحيح أن الإنسان بتكوينه الحالي لا يستطيع أن يقضي أيامه دون عمل وأن يتكئ على الأرائك دون حراك لأنه لن يكون ملزماً بأي عمل يقوم به ولا بفرائض يقدمها للخالق . ولو أخذنا الفرائض بالمفهوم الذي أوردته في هذا السياق لتأكدنا من أن الله سبحانه لم يفرض علينا شيئاً لذاته . كل ما أمرنا به يعود علينا بالخير إذا تقيدنا به ، وذكر الله لمجرد الإيحاء إلى النفس بوجود الرقيب الذي يحدد درجات العاملين بتعاليمه .

لكن الانتقال إلى طبيعة أخرى وما سيعترينا من تطور لننسجم معها أمر من حق كل منا أن يتصوره على الشكل الذي يرضيه . وإذا كنا مؤمنين بعدالة هذا الخالق ورحمته وحكمته فإننا لن نلاقي شيئاً مما لا يتفق مع ما سنسوى عليه في المرحلة القادمة .

وخلاصة القول إننا هنا في دار اختبار والنجاح متاح لكل منا إذا شاء أن ينجح لكنه لم يُرغم على النجاح أي أنه هو الذي يقرر مصيره بنفسه وقد أكد ربنا هذه الحقيقة إذ قال في مواضع كثيرة ما يشير إلى صحتها :

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ **٩٧ النحل** .

﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ **٤٤ الروم** .

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلّا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ **٤٠ غافر** .

﴿ ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلّام للعبيد ﴾ **٣٣ و ٤٦ فصلت** .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ **١٥ الجاثية** .

ولعلّ الآيتين الأخيرتين بعيدتين أكثر من سابقاتها عن كل اجتهاد وتأويل . أنت تتصرف بمنتهى الحرية ، تفعل ما تشاء ، فإن أسأت عوقبت بما فعلت ، ولكل سيئة عقاب يساويها . ومن لا تقنعه هذه الدلائل لا أستطيع أن أثبت له عملياً صحتها . كل ما يمكنني قوله هو أن العقل يرفض أن يكون الله الكلي العقل والرحمة قد خلق الإنسان ليسحق القوي منه الضعيف . تلك حالة يكرهها البشر ويمقتها على الأرض فيثور ضد الطغاة ، فكيف يرضى بها ويقرها ذو الحكمة الكلية والعدل المطلق ويجعلها صراطه المستقيم . أيكون قوله تعالى :

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ﴾ ٣٤ النور .

خالياً من الغاية البينة التي يهدف إليها بهذا القول أم توجيهاً للمتعقلين ليتحاشوا أخطاء السابقين ويقيموا المجتمع الفاضل الذي يريدهم أن يعيشوا فيه .

لقد أعطى الخيار للإنسان ليكون المسؤول عن مصيره ولو كان ما نفعله في حياتنا قدراً فرضه علينا لما كان هناك عقاب ولا ثواب إذ كيف يعاقب من قضي عليه أن يكون كما هو عليه ؟ أيستطيع مخلوق أن يتحدى إرادة الخالق .

لا ريب أن القدريين يخطئون تماماً في مفهومهم حول القدر إذا اعتبروه حكماً مسبقاً لأن كل شيء في كتابنا ينفي هذه الصورة . إن صانع الآلة في عالمنا يعرف ما ستكون عليه حالها إذا أساء مستعملها التصرف ولم يتقيد بالتعليمات التي يشفع آلته بها لتجنب الأخطاء في استعمالها . إنه يعرف ما قد يصيبها لكنه لا يلزم مشتريها بارتكاب الأخطاء التي تسيء إليها . فكيف الأمر إذا كان الصانع هو الخالق العظيم الذي لا حدود لكمال تنظيمه ومدى إدراكه . جل شأنه سبحانه الخبير العليم .

هناك طرفة شاعت بعد أن عمت إضاءة المدن بالكهرباء التي لم تكن معروفة من قبل ، ابتكرها أهل المدنية ليسخروا من القرويين الذين كانوا يجهلون هذه الظاهرة . تقول الطرفة إن قروياً جاء إلى المدينة في عمل ثم عاد إلى قريته فسئل عما رآه في المدينة فقال : إنهم يضيئون أزقتهم بمصابيح لا يطفئها المطر ولا الهواء العاصف ، كنت أرى الفتيل لكنني ما استطعت رؤية المكان الذي يضعون فيه الزيت وهذا ما أذهلني !

هذا هو الفارق بين القديم والحديث وأنت سيد القرار في تحديد موقعك على هذه الطريق .

النفس وشياطينها

النفس فيما أعلم قسمها بعض الفقهاء إلى ثلاثة أنواع : نفس لوّامة ونفس أمّارة ونفس مطمئنة ، اعتماداً على ما جاء ذكره في كتابنا الكريم :

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ... ﴾ ١ ، ٢ **القيامة** .

وفسرت الكلمة في معجم ألفاظ القرآن بأنها تعني النفس التي تلوم صاحبها لوماً شديداً على ارتكاب الشر أو التقصير في عمل الخير وأنها قد تكون « الضمير » في الاصطلاح الحديث :

و ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ... ﴾ ٥٣ **يوسف** .

وفسرت الكلمة في المعجم نفسه بأنها طلب الفعل وهو ضد النهي .

و ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي ﴾ ٢٧ ــ ٣٠ **الفجر** .

وفسرت الكلمة بأنها السكون المعنوي أو النفسي .

لكن هذا التقسيم لا يعني أن هناك ثلاثة أنواع من الأنفس مقسمة على بني الإنسان بحيث من يملك واحدة منها لا يملك سواها ولا يعرف شيئاً عن النفسين الأخريين . إنها نفس واحدة يملكها كل إنسان على غرار مثيله لكنها قد تتحول من طبيعة إلى أخرى وفق سلوك صاحبها . فقد يندفع إنسان إلى عمل معين ينافي الأسس القويمة التي فرضها الخالق ثم يندم على ما فعل ويكفر عن فعلته وبذلك ينتقل من حال إلى حال وفقاً للنتيجة التي يصل إليها .

ومن الطبيعي أن لكل فعل يقوم به الإنسان دافعاً أو أكثر يقوم وراءه فيحرض عليه . والفرق في انتهاج بعضهم سلوكاً يتنافى مع ما يراه أصحاب النفوس المطمئنة يرجع في دوافعه إلى التربية الأساسية التي نشأ عليها الإنسان في أسرته ثم إلى البيئة والمجتمع .

أرأيت أباً في أسرته يسمع صوت قرع الباب فيقول لابنه أن ينفي وجوده في البيت إذا كان الطارق يسأل عنه . ألا تستغرب أن يعاقب هذا الأب ابنه إذا كذب عليه مع أنه هو الذي علمه الكذب ؟ والأم التي تجلس مع أولادها تشتم جارتها وتعيبها في أمور تذكرها ثم إذا جاءت تلك الجارة المشتومة تحولت تلك الأم إلى الإطراء والترحيب . أتستغرب إذا نشأ الأبناء على اختلاف أنواعهم منافقين كاذبين يعتبرون الكذب والنفاق أساساً للعلاقات الاجتماعية ؟

وذلك الأب الذي يتباهى أمام أسرته بأنه استطاع أن يخدع فلاناً من الناس فباعه بضاعة فاسدة ما كان يعرف كيف يتخلص منها وأنه ببراعته تلك وقى نفسه من الخسارة التي كان سيمنى بها. وأمثلة كثيرة تترسخ في نفوس الأبناء في بدء نشوئهم يعتبرونها مقومات أساسية لطبيعة المجتمع ينتقل المشبعون بها إلى مجتمع المدرسة الذي يجدون فيه تناقضاً صارخاً مع ما نشأوا عليه إذا كان المدرسون يترفعون عن تلك الحقارات، أو تطابقاً مع ما ألفوه إذا كان الحال مختلفاً ثم يدخلون بعدها إلى الحياة العامة. ألا ترى معي طبيعة المجتمع الذي يجمع بين هؤلاء والصورة الناطقة التي تعرّفه؟

لقد انحطّ مجتمعنا باتخاذنا سلوكاً استقيناه مما أطلق عليه اسم «التمدن» وسيطر الفكر المادي علينا حتى بات المال هو الهدف الذي نسعى إليه بكل وسيلة ممكنة فتقطعت أوصال الصلات التي كانت تربط بعضنا ببعض فبات الجار لا يعرف شيئاً عن جاره والقريب عن قريبه وأطلق كل منا لنفسه حرية التصرف متناسياً المثل الذي كان يردده آباؤنا في عصر الجهالة والذي كان يقول: «ضع إصبعك في عينك، كما تؤلمك تؤلم غيرك» وأصبح هدفنا أن نضع أصابعنا في عيون من نشاء أو نقدر شريطة أن نعمل على ألّا يضع أحد إصبعه في عيننا. كان الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق. هكذا كان آباؤنا يقولون وينهجون في سلوكهم. فما هي نسبة الذين يعملون بهذا القول في هذا العصر «المتمدن»؟

لا ريب أنك ستتساءل عن الحل. إنه أمر ميسور وفي متناول أيدينا. الحل أن نعود إلى قانوننا الأساسي الذي لو تقيدنا بتعاليمه لبتنا مؤسسي المجتمع الفاضل الذي نتوق إلى تحقيقه.

كتابنا هو الحل، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. والمطلوب الآن هو تطبيق الجزء الأخير من هذه العبرة وأنت سيد اتخاذ القرار. اللهم لقد ذكرت.

لقد تعرضت لهذا الموضوع الشائك الذي يتجنب المتحدثون باسم الدين مناقشته أو حتى الوقوف عنده استجابة لسؤال تكرر طرحه من قبل الكثيرين من المثقفين الذين تاهوا في الوصول إلى جواب مقنع عن سبب خلق الشياطين. فنحن ننفي الظلم عن الخالق العظيم في حين أن كتابنا الكريم يؤكد في مواضع كثيرة خلق الشياطين ويربط بينهم وبين مخلوقاته من البشر الذين فضلهم بأن أمر الملائكة الأطهار بأن يسجدوا لهم وهو الأمر الذي تأبى العقول تقبله، فكيف تفضلني وتخلق من يدمرني؟ هذا هو السؤال الذي تكرر طرحه.

ولم تقتصر سلطة هذه المخلوقات التي لا يستطيع الإنسان رؤيتها وتحديد أمكنتها ليسهل عليه إبادتها أو تحاشيها على الإنسان وحده بل على الأنبياء والرسل الذين كلفهم الله بنقل

تعاليمه إلى البشر أجمعين . وهذه آية تؤكد صحة ذلك في ما وقع للنبي المصطفى . إن الآيات ٧٣ ــ ٧٧ من سورة الإسراء تشهد بذلك :

﴿ وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدْتَ تركن إليهم شيئاً قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ .

وتقول المراجع إن هذه الآيات نزلت في وفد ثقيف الذين أتوا النبي فسألوه أن يمتعهم باللات سنة وأن يحرم واديهم كما حرّم مكة فأبى ولم يجبهم فأقبلوا يكثرون مساءلته قائلين : إنا نحب أن نعرّف العربَ فضلنا عليهم فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرني بذلك . فأمسك وداخلهم الطمع وقد همّ النبي أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآيات .

وقول آخر إن المشركين قالوا للنبي ﷺ لا نكف عنك إلا بأن تلمّ بآلهتنا ولو بطرف أصابعك فقال النبي ما عليّ لو فعلت والله يعلم أني بار ، فنزلت تلك الآيات .

وقول ثالث يقول إن قريشاً خلوا برسول الله ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويودونه ويقاربونه فكاد يقاربهم في بعض ما يريدون لولا أنزلت هذه الآيات .

وهذه الأقوال وردت الأولى على لسان عطاء عن ابن عباس والثانية لسعيد بن جبير والثالثة لقتادة .

ولا ريب من القول : إين الشيطان في هذه الأقوال ؟ والرد أن الآية الثانية عشرة بعد المائة من سورة الأنعام تقول :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ .

وهذا يعني بوضوح أن الشياطين يستخدمون الإنس في غواية البشر ، أي أن الغواية والإغراء لا يأتيان بالإيحاء دون الوسيلة التي توحي بهما .

ولو استعرضنا كل ما جاء في كتابنا عن الشيطان لبتنا في ذهول . إنه لم يزلّ آدم وزوجه ويخرجهما من الجنة فحسب كما جاء في الآية السادسة والثلاثين من سورة البقرة ، بل جاء ذكره في أكثر من ثلث سور قرآننا الكريم . ولو جاء ذكره عرضاً لما أثارني الأمر . لكن تكرار هذا الاسم ثمانين مرة في آياتنا أرغمني على جمع تلك الآيات حسب تسلسل نزولها في محاولة لإيجاد سبب موجب لمثل هذا التركيز .

في سورة التكوير قال مؤكداً إن ما ينقله النبي إلى البشر هو من وحي الخالق :
﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ٢٥ .
وفي سورة «ص» بيّن الخالق في الآية السابعة والثلاثين أنه سخر لسليمان مع الريح «والشياطين كلّ بناءٍ وغواص» لكنه في الآية الواحدة والأربعين قال :
﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾
شياطين تُسخَّر لسليمان وشيطان يمس أيوب بالعذاب ! وفي سورة الأعراف يقول في الآية العشرين :
﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾
فلما استجابا لخديعة الشيطان قال في الآية الثانية والعشرين :
﴿ فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾
واتخذ الخالق هذه الواقعة عبرة للإنسان فقال في الآية السابعة والعشرين :
﴿ يا بني آدم لا يفتتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾
ويؤكد علاقة الشياطين بغير المؤمنين في الآية الثلاثين :
﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

الشيطان يغرر بآدم وزوجه رغم أن الله نبأهما بعدائه وبأنه ولي الذين لا يؤمنون . أليس غريباً أن يقع آدم في أحابيله وهو أبو البشر الذي اصطفاه الخالق في حين سخره ليكون في خدمة سليمان ؟ إن آدم سلف سليمان . فهل كان ذلك انتقاماً مما فعله بالسلف ؟

ويؤكد الله أن الغاوين هم الذين يتبعون الشيطان فيقول :

﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ ١٧٥ .
ويعطي مثلاً على تصرف الصالحين فيقول للنبي محذراً :
﴿ وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ ٢٠٠ ، ٢٠١ .
ألا يدل هذا على أن الفارق بين الخطأ والصواب لا يتعدى إعمال الفكر . وإذا استثنينا

الشياطين الذين سخرهم الله لخدمة سليمان ألا ترى في الآيات الأخرى إشارة واضحة إلى النوازع التي تحرك الإنسان .

وفي سورة « يس » يقول سبحانه :

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾ ٦٠ ــ ٦٢ .

وفي سورة الفرقان يصف الشيطان على لسان من أغواه فبات ظالماً فيقول :

﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ ٢٩ .

وكرر القول في سورة فاطر :

﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ٦ .

وفي سورة مريم نجد إبراهيم يخاطب أباه فتقول الآيات :

﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾ ٤٤ ، ٤٥ .

ويكرر الخالق إنذار الإنسان فيقول :

﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ ٦٨ .

ويضيف :

﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا﴾ ٨٣ .

ويصف علاقة الشيطان بالإنسان بقوله في سورة طه :

﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْكٍ لا يبلى﴾ ١٢٠ .

وفي سورة الشعراء :

﴿هل أنبّئكم على من تنزّل الشياطين ، تنزّل على كل أفاك أثيم﴾ ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وكذلك في سورة النمل عن قوم بلقيس :

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ ٢٤ .

ويعطي الخالق مثالاً ما فعله موسى قبل أن يُكلف بالدعوة فقال :

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضلّ مبين﴾ ١٥ القصص .

ويضيف إيضاحاً جديداً لنشاط الشيطان فيقول سبحانه في سورة الإسراء:
﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ ٢٧ .
﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ ٥٣ .

ويورد فيها موجزاً عن حكاية آدم مع إبليس وفيها نرى جمعاً بين إبليس والشيطان فيقول:
﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً. قال أرأيتك هذا الذي كرّمت علي لئن أخّرتَنِ إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفورا، واستفززْ من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدْهم. وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ ٦١ ــ ٦٤ .

وفي سورة يوسف نلمس بوضوح دور الشيطان:
﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ ٥ .
﴿وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾ ٤٢ .
وقوله:
﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجّداً وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي. إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم﴾ ١٠٠ .
ويقول جلّ وعلا في سورة الحجر:
﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين، وحفظناها من كل شيطان رجيم، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ ١٦ ــ ١٨ .
وهنا نجد مجالاً آخر يحاول الشياطين الخوض فيه.

وعبرة جديدة يقدمها الخالق للذين يعملون عقولهم ويدركون إذ يقول في سورة الأنعام:
﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ ٤٢، ٤٣ .

وفي الآية التالية يحذر النبي ﷺ نفسه من الشيطان فيقول له :
﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره . وإما ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ ٦٨ .

ويصف حالة الإنسان الذي يقع في حبائل الشياطين فيقول :
﴿ قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونُرَدّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأُمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ ٧١ .

ويؤكد الخالق أن للأنبياء أعداء من الشياطين فيقول :
﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ ١١٢ .

ويضيف محدثاً الإنسان :
﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ ١٢١ .
وينهي قوله بنصيحة للمؤمنين بعد أن يذكرهم بنعمته :
﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخلُ والزرع مختلفاً أُكُله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، ومن الأنعام حَمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ١٤١ ، ١٤٢ .

وفي سورة لقمان يبين الخالق البون الشاسع بين الكفر واليقين فيقول :
﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ ٢١ .
ويختلف الأمر في سورة فصلت إذ يعطي الإنسان العلاج الذي يخلصه فيقول :
﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ ٣٦ .

وفي سورة الزخرف نجد التحذير من شرك الشيطان إذ يقول الخالق :
﴿ ومن يعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ٣٦ .
ويضيف :
﴿ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ٦٢ .

ولا يتغير الحال في سورة النحل إذ يقول :

﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ ٦٣ .

وينصح قائلاً :

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ ٩٨ .

ويبين الله للإنسان موقف الشيطان في نهاية المطاف فيقول :

﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ ٢٢ .

ومن هنا يتضح أمر الشيطان وتأثيره في الإنسان وتصرفاته بحيث ينحصر الأمر في استجابة الإنسان للنزعة .

وفي سورة الأنبياء يعود الخالق إلى تأكيد تسخيره للشياطين في خدمة سليمان فيقول :

﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾ ٨٢ .

وهذا يبرهن على نوع آخر من الشياطين لأن الذين يعملون على إغواء الإنسان يوسوسون له فحسب لكنهم لا يقومون بأي عمل أي أنهم يدفعون الإنسان إلى التصرف بما لا يرضي الخالق وهذا لا يمكن أن يتم إلا بالدوافع النفسية . أما الشياطين العاملون فلا بدّ وأنهم مخلوقات حية من الجن لا نراهم لكنهم يعملون .

وفي سورة « المؤمنون » نصيحة يوجهها الخالق إلى نبيه المختار فيقول :

﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ، وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ ٩٦ ، ٩٧ .

وهذا يدل على أن الانفعال من أعمال الشيطان .

لكننا في سورة الملك نرى الخالق يأتي على ذكر الشياطين العاملين فيقول سبحانه :

﴿ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ ٥ .

وهذه ليست المرة الأولى التي ينبهنا سياق الآيات الكريمة إلى المعنى الذي أرادنا الخالق أن نميز بين مرامي الكلمة الواحدة التي تدل على شيئين مختلفين من حيث طبيعة التكوين ومتفقين من حيث النتائج .

يعود سبحانه إلى ذكر شيطان النفس في سورة العنكبوت فيقول :
﴿وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ ٣٨ .
ويأتي في الآيات التي بعدها على ذكر قارون وهامان وفرعون وغرورهم وكيف أخذهم سبحانه بذنوبهم .

وفي سورة البقرة، إضافة إلى ما سبق إيراده في هذا البحث حول إبليس، نجد ذكر الشيطان في عدد من الآيات . يقول في الآية الرابعة عشر عن المنافقين :
﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ ١٤ .
ويعود إلى ذكر شياطين سليمان فيقول :
﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمنْ اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ ١٠٢ .
وهذه الآية التي تعني بني إسرائيل تجعلنا نعود إلى سورة الجن في قرآننا الكريم التي تؤكد علاقة بعض بني الإنسان في ذلك الحين بالجن كما ورد بصراحة في سياق تلك السورة . أما عن الملكين هاروت وماروت فإنني عاجز عن تقديم بيان مفيد لذا أنقل ما قاله المقريزي عنهما مع أنني لا أصدق ما رواه : «قال إنهما صفر الأجساد عراة لكل منهما بثيان إلى ركبته أزرق اللون، مشدودان بالحديد من أصول ساقيهما رؤوسهما إلى تحت ــ وهذا يعني أن لكل منهما أكثر من رأس واحدة ــ وأرجلهما إلى فوق والله أعلم» والرواية ضعيفة ولا شك لكن المقريزي وصف ملائكة السماء وحملة العرش بأشكالهم وبنياتهم وملابسهم فهل يعييه وصف ملكين في بابل ؟
ويعقب ذلك نداء للمؤمنين فيقول سبحانه :
﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ ١٦٨، ١٦٩
ويكرر هذا النداء فيقول :
﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ٢٠٨ .

ويذكر به للمرة الثالثة فيقول :

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ ٢٦٨ .

ولنتأمل هذه الصورة في هذه الآية التي يبين لنا فيها النزوة والمغالطة التي يعمد إليها الإنسان استجابة لدوافع نفسه . يقول :

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ٢٧٥ .

وهذه الصورة عما يصيب العاملين بنزعتهم النفسية :

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ ٤٨ الأنفال .

وقول جديد عن نوازع النفس يقول فيه جل وعلا :

﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ ٣٨ النساء .

وعن النفاق :

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ ٦٠ .

وهذه نصيحة بليغة في سورة النور يقول الخالق فيها :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكّي من يشاء والله سميع عليم﴾ ٢١ .

وفي سورة الحج نعود إلى ما سبق أن أكده الله حول نفسية الأنبياء فقال :

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ ٥٢ ، ٥٣ .

وفي سورة المجادلة مثال آخر على فعل الشيطان ، يقول سبحانه :
﴿ إنما النجوى من الشيطان ليحزُن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ١٠ .
والنتيجة التي يصل إليها من يتبعه فيقول :
﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ ١٨ ، ١٩ .

وأخيراً هذه صورة عما يصبح الإنسان عليه إذا فقد اتزانه وثار أو استهان . يقول الخالق :
﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ ٩٠ ، ٩١ المائدة .

ولعلك ترى معي بعد كل هذه الأمثلة التي وردت في كتابنا الكريم عن الشيطان أن المقصود بعيد تماماً عما يستنتجه الإنسان من ظاهر المعنى مما يدين الخالق العظيم بالضعف أو الظلم سواء في موقفه إزاء إبليس الذي كان عصيانه مقبولاً أو إزاء آدم الذي ابتلاه بما لا طاقة له على رده . فالله الذي خلق لم يخطئ في تصميم خلقه . كان يعرف مسبقاً تفاعل مكونات بنية الإنسان التي وجب أن تتجاوب مع مكونات الأرض التي سيقوم عليها . كان يعرف أن المرحلة الأولى من الاختبار واجبة وأن النجاح فيها راجع إلى الإنسان نفسه الذي يمكنه استعمال إرادته لكبح أنانيته ونزواته وجشعه وحقده وحسده إذا اتبع تعاليمه التي حددها له بأسلوب تعيه كل المفاهيم . أكد سبحانه أن للناجح في الاختبار أجراً غير ممنون وأن الراسبين سيردون إلى أسفل سافلين . تلك هي النفس ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا .

أعمال المؤلف المترجمة

١ ـ الجريمة والعقاب.

٢ ـ الساعة الخامسة والعشرون.

٣ ـ الحرب والسلام.

٤ ـ المدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية.

٥ ـ التلفاز الملون.

٦ ـ تاريخ حياتي ـ جاك كازانوفا (أربعة عشر جزءاً).

تحت الطبع

ـ اختلاف الصيغ في القرآن.

ـ الحياة خلال قرن.

ـ العلم والدين: نبيٌّ أم دعيّ حوار طويل مع مستشرق.

العلم والدين

تمرد في السماء

Science and Religion

Rebellion In The Sky

تمرد في السماء : العلم والدين / محمد فايز كم نقش . ــ دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة ، ٢٠٠٠ . ـ ١٦٠ص ؛ ٢٤سم.

١ ـ ٢١٤ ك م ن ت ٢ ـ ١١٠ ك م ن ت
٣ ـ العنوان ٤ ـ كم نقش

مكتبة الأسد

رقم الايداع ١٧٩/ ٢/ ٢٠٠٠ رقم الاصدار ٨١٥

رقم: ٤١٦١٥
تاريخ: ١٥ /٣/١٩٩٨

هــذا الكتــاب

مرت على الإنسان قرون طويلة وهو عاجز عن الربط بين وجوده وما حوله من مقومات هذا الوجود. ولما بلغ درجة من الوعي والإدراك مكنته من التساؤل عما هو فيه، بدأ بتعداد الآلهة وتحديد سلطانها حتى انتهى إلى الإله الواحد.

ولما جاء الدين الإسلامي جامعاً بين الوجود وتعاليم الواجد، انصرف إلى التأويل والتفسير والتعمق في مراحل الفقه وطبيعة المجتمع. لكنه لم يربط بين العلم والدين.

وهذا الكتاب خطوة أولى على الطريق التي تنقل الواعي المتبصر إلى ما أُغفل بحثه منذ قرون. والحكم للعقل والدليل الحسّي الملموس.

